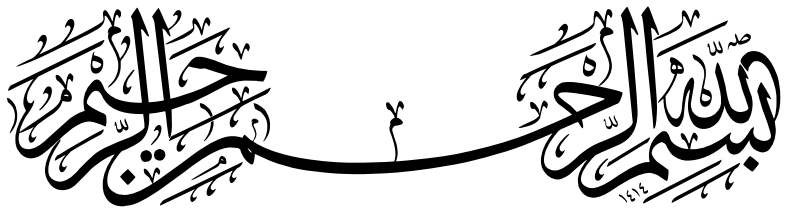
بسم الله الرحمن الرحيم

بَوَارِق قُرْآنِيَّة

الشيخ عبدالله الطاهر النمر

(مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الشيخ خلال ليالي
شهر رمضان المبارك سنة ١٤٣١ هـ)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى – ١٤٤٢هـ

القطيف

حركة الانسان: روحيّة و ماديّة

١/ احتياجات البدن و تطلُّعات الرّوح

إننا في هذا الشهر الشريف مدعوون لضيافة الله، و لهذه الضيافة ما يشابهها في العشرة الأولى من ذي الحجة كما سنشير إذ أن الانسان في أيام دهره يكون عادة مشغول في بناء ذاته و نفسه و احتياجاته الدنيوية؛ في كسبه و معاشه و أهله و مجتمعه. طوال السنة يعيش الانسان حالة من الجد و الاجتهاد في كسب معيشته و هذا مطلوب من الشارع إذ أن (الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله)[١] ، إلا أنه عادة ما لا يكون الإنسان في معترك الحياة هذا - وهو منكب على هذا الجانب من احتياجاته - قادراً على أن يبقي التوازن الانساني السّوِيّ على ما هو عليه؛ بمعنى أن الانسان هو عبارة عن تطلعات روحية بالإضافة إلى احتياجاته البدنية و في خلال أيام السنة يطلب منه أن يسعى و يعمل في الكد على عياله و على أعمال بدنه و لكن يراد منه أن يبقى محافظاً على هذا اللون من التوازن بين احتياجات البدن و احتياجات الروح، إلا أن الانسان بطبعه و مع طول مدة الإقبال على احتياجات البدن يكون ذلك عادة على حساب احتياجات الروح و تطلعاتها و تعطشاتها، و هذا شأن انساني عام، قلما يستطيع الانسان أن يتخلص من براثين هذا النوع من الافتقار إلى توازن. لتوضيح الفكرة نقول في المقدمة: قد يكون ابنك في بعض الأحيان يحتاج إلى آلة مواصلات للذهاب إلى الجامعة للكسب و التحصيل و التعلم مثلا، وأنت عندما تتفضل عليه و تشتري له ما يلائمه و تعطيه إياه

---

[١] عوالي اللآلي، ج١، ٧٠.

فإنه من المفترض أن تكون هذه الآلة سبباً لتحصيله العلم و وصوله لمكان التعلم إلا أنك ستلاحظ أن ابنك أول ما تعطيه السيارة يأنس بها فيعتني بها و ينظفها و يحسن ترتيبها و ينشغل بها و لعله بعض الأحيان يهتم بها و ينفق عليها من وقته، بدلاً من أن تكون هي آلة في الوصول الى اكتساب العلم أو توصله إلى مصدر رزقه أصبحت هي مصرف للمال و متلفة للوقت، إنّ عدم التوازن الذي لمسناه في هذا النموذج الافتراضي عادة ما يكون هو سائد في حياة الانسان. عندما يقول لك الشارع: اذهب و اعمل و اكدح في سبيل كسب عيالك و هذا سوف يكون في ميزان عملك،فإنه لا يدعوك لأن تجعل من هذا الموضوع محور حياتك وهمك، لكن الإنسان غالبا ما يفتقد إلى حالة من الاتزان و التوافق، و من هنا نجد أن الشارع قد أوجد حالات استثنائية في المجرى العام، هي ضرورية في إرجاع الحالة التوازنية إلى ما كانت عليه و إرجاع الحالة الاعتدالية في الحركة التوازنية و هذا ما يحصل في أيّام ذي الحجة مثلاً أو في شهر محرم و شهر رمضان بالخصوص أو في حالات الاعتكاف أيضاً، و لكنها حالات ليست هي الحالة الأصلية، ليس الأصل في الانسان أن يبتعد عن الواقع الاجتماعي أو عن الكسب الحلال و إنما نحتاج الى ورش العمل الاستثنائية و الواقع الاستثنائي هذا لإرجاع الحالة التوازنية إلى ما كانت عليه في أصل الحال.

٢/ شهر رمضان: موسم خاص للسلوك الروحي

من هنا نجد أننا في هذا الشهر ندعى إلى لون من ألوان السلوك الذي لا يفترض أن يكون هو السلوك العام و الجري العام في حياة الانسان و هي حالة الجوع و العطش و الجهد و الاجتهاد في إضعاف الرغبات البدنية و ذلك لإعطاء فرصة توازن لاحتياجات الروح و تطلعاتها الى حالة من التجرد و التعفف و التسامي عن الخضوع لاحتياجات البدن. هذه الحالة نحن في أمس

الحاجة إلى أن نعيشها في فترة لكي نحقق أرضية للانجذاب الإلهي و الاختيار الإلهي لأن الله تعالى يريد منا أن نتجرد في هذا الظرف الزماني المعين حيث يهيء طبيعة الأجواء و الوجود و الأفلاك لهذا اللون من الحركة الانسانية التي تندفع فيها الروح في مراتب الكمال و تتحرك في درجات التسامي و التكامل. هذه الحركة الروحية و الانجذاب الروحي إلى الله جل و علا أوجد له مدرسة خاصة، مدرسة شهر رمضان و فترة شهر رمضان و أدبه و قواعده.

لكلّ ما في الوجود حركة ترقّي

في هذا الشهر المبارك و الظرف الاستثنائي يراد من الانسان في الحقيقة أن ينسجم مع الطبيعة العامة و الوجود العام في الحركة، إذ أن الحركة إلى الله ليست خاصة بالانسان بل أن كل ما في الوجود في الحقيقة هو في إطاره العام في حالة توجه و حركة الى الله و في حالة تسامي و اندفاع باتجاه الكمال و النمو و الترقي. كل ما في هذا الوجود ليس موجوداً باطلاً بل هو مهيأ و ميسَّر إلى أن يسير بهذا الاتجاه، كما تشير الروايات و الدلائل الكثيرة إلى أن كل الموجودات عندها مقدار من الاختيار و مقدار من الادراك و مقدار من الحركة و السلوك بين قوسي الصعود و النزول!؛ يعني نحن قد يبدو لنا أن هذه الحركة التكاملية مخصوصة للانسان ولكن لو وسَّعنا من آفاق إدراكاتنا بعض الشيء لوجدنا أن كل الوجود متناغم في حركته باتجاه التكامل و التسامي.

لكلّ ما في الوجود مرتبة من الإدراك و الخضوع

القرآن الكريم يشير الى هذه المعاني بشكل مباشر و صريح حيث يقول ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّه﴾[1]

[1] الحشر/٢١.

الجبل تجد عنده مقدار من الإدراك و الاستيعاب و التفاعل مع الآيات القرآنية و أنها لو نزلت عليه لانعكس عليه بحالة من الخشوع و الخضوع و الانكسار أمام الآيات القرآنية و أيضا يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1]؛ يعني كل ما في هذا الوجود منقاد و خاضع و منساق الى الله جل و علا ﴿وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَليماً غَفُوراً﴾؛ إذن كل ما في هذا الوجود هو منساق الى الله جل و علا و هو في مسير سلوكه التكاملي إلى بلوغ حده و كماله ، وكل ما في هذا الخلق في حالة عودة ورجوع إليه طوعاً أوكرها [أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ][2] [ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ][3] ،و هذا ليس خاصا بالانسان و لا الجماد بل حتى الحيوانات أيضا خاضعة لهذا اللون من الحركة! حتى الحيوانات عندها مجال تذبذب بين حالة السلوك الى الله جل و علا و التأخر عن الله جل و علا. و من هنا نجد أن كل الموجودات تقع بين قوسي الجمال و الكمال من جهة و الدنو و الذلة من جهة ثانية، و من هنا لعله يمكن توجيه بعض ما يقال في حق بعض الأحجار الكريمة مثل ما جاء في أن أول من آمن بولاية علي عليه السلام هو العقيق الأحمر[4]، الآن ماذا يدرك العقيق الأحمر من معاني هذا الوجود؟!، كيف يوالي أمير المؤمنين عليه السلام قد تكون هذه المعاني غير واضحة و غير بيّنة، و

---

[1] الإسراء/ ٤٤.

٢ آل عمران / ٨٣

٣ فصلت /١١

[4] بحارالأنوار، ج٢٧، ٢٨٠.

لكن الروايات تشير الى بعض هذا السلوك و الحركة إذن كل ما في هذا الوجود في الحقيقة هو في حالة اندفاع و تسامي إلى بلوغ حالات الكمال و الرفعة.

مميّزات الانسان عن سائر الوجودات في الحركة التكامليّة

يمتاز الانسان في ضمن هذه الموجودات أنه **أسماها قدرة إدراكية** فمن هنا لعله يبرز التمايز الواضح بين الطبيعة الإدراكية لدى الانسان عن بقية الألوان الإدراكية لدى الحيوانات و النباتات و الجمادات والتي نحسب أنها غير مدركة و أنها لا تتمتع بالإدراك و الحال أنها تنطوي على لون من الإدراك يتلاءم مع طبيعة وجودها وسعتها الوجودية.

يترتَّب على تميّز الانسان في السعة الإدراكية تميّزه في **مساحة القدرة الحركية** أيضاً بمعنى أن الانسان كما أنه يتمايز في ما بين أشخاصه في بعض ألوان الكمالات فإنه هو من حيث الحركة الإدراكية كذلك يعيش حالة من التفاوت يقول الله عز و جل ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْض﴾[1] ، هذا التمايز و التفاضل يدعو الانسان الى النظر اليه لأنه محسوس و ملموس أنت تجد أن الناس يتفاوتون في قدراتهم الإدراكية، في طيبتهم، في قواهم البدنية تجد شخص ضعيف و آخر قوي، تجد انسان طويل و آخر قصير...كما أن الناس يعيشون مساحة من التفاوت في كثير من الجهات فتجد هناك شخص حادّ الذهن و آخر بليد، أن هناك مَن حافظته قوية و آخر بالكاد يحفظ و تجد شخص طويل القامة و ضعيف الهِمَّة و آخر قصير القامة و بعيد الغوص، هناك الأغنياء و هناك الفقراء، ثم ينعكس عن التفاوت الذاتي ويترتب عليه تفاوتات اجتماعية هناك من هو مقدَّم اجتماعياً و هناك من هو مؤخَّر، هناك من هو مبسوط اليد و هناك من هو مكفوف اليد، الآية

[1] الإسراء/٢١.

القرآنية تتمم ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ على مستوى هذه الدنيا، ﴿وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضيلاً﴾ هذا التمايز الذي ندركُه و نحسُّه و نستطيع أن نعيش معه هو نحو من التمايز المحدود مهما يكن الفارق في القدرة البدنية بين أضعف الناس و أقواهم فإنها بالنتيجة فارق محدود. لم يكن الفارق بين أقوى الناس و أضعفهم فارقا هائلا شديدا كما يتضح عندما ندرس حقيقة هذا الفارق وطبيعته ، لن يكون الفارق بين الغني من الناس و الفقير إلا في أفضل الأحوال في النقد و الأموال .

٣/ التفاوت بين الحركة الروحيّة و الماديّة

أ-اختلاف درجات المؤمنين

إذا لاحظنا طبيعة التفاوت في جهة أخرى كما في الروايات التي تشير إليها مثلا عن الرسولﷺ: (الدرجة في الجنة فوق الدرجة) يعني عندما نقول أن هذا فوق هذا بدرجة (الدرجة في الجنة فوق الدرجة كما بين السماء و الأرض و إن العبد ليرفع بصره فيلمع له نور يكاد يخطف بصره فيفرح؛ يتساءل، فيقول ماهذا النور الذي رأيته فيقال له هذا أخوك فلان، فيقول لهم هذا أخي فلان كنا نعمل جميعاً؛ هذا صاحبي ماكنت أظن أن التفاوت بيني و بينه هذا المستوى، هذا أخي فلان .. و قد فُضِّل عليّ هكذا!؛ لم أتوقع هذا المقدار من التفاوت بحيث لا أستطيع أن أرى لمعة من لمعات وجوده!، فيُقال له إنه كان أفضل منك عملاً؛ طبعاً هذا لون من الحسرة و الندامة سوف يصيب قلوب المقلين في العمل و من هنا يعالج الله حالة هذا المؤمن المسكين عندما يصاب بهذا الألم ، تتمة الرواية: ثم يُجعل في قلبه الرضا حتى يرضى[1]؛ يعطيه ما يرضيه بحيث يدخل الجنة و هو يعيش حالة الرضا و الاستسلام، لعلّنا إلى

[1] الأمالي للطوسي، ٥٢٩.

الآن لم نستطع تصوير طبيعة التفاوت و طبيعة الحركة الوجدانية التي يستطيع الانسان أن يطويها خلال هذه المرحلة الوجودية.

ب-طبيعة الجزاء الأخروي

إننا نريد أن نسلط الضوء على جانب التفاوت في النتاج العملي على مستوى الروح و لكن قبل ذلك لنضع نموذج لحالة التفاوت على مستوى الدنيا، باعتبار أن أغلبنا نعيش حالة التفاوت المباشر في الجهة المالية، مثلا الشخص الذي يمتلك مبلغاً من المال و يدخل الى السوق يدخل بمعاييره و ميزانه فمثلاً صاحب المئة ألف عندما يكسب في الشهر أو الشهرين خمسين أو سبعين ألف يعتبر هذا كسباً جيداً و يعتبر نفسه قد استفاد و لو أنه لم يربح إلا عشرين ألف لوجد في نفسه شيء من الحسرة و الألم في أنه أجهد نفسه بقليل فائدة، أما عندما يخرج خلال شهر بخمسين ألف مثلاً فإنه سوف يشعر في نفسه بحالة من الرضا و الأنس و أنه قد حصل كسباً جيداً، و لكن الشخص الذي يدخل السوق و عنده خمسة مليار دولار فعندما يكسب مئة ألف خلال الشهر يبقى في أعماقه يشعر بالحسرة و الندم و أنه يمر في حالة كساد لأن عادة الربح بهذا المبلغ مثلا خمسة ملايين أو عشرة , أرقام بعيدة كل البعد عن الأول و لكن هذا اللون من التفاوت في داخل دائرة المعقول و الممكِن و المُتَصوَّر، الآن لننتقل الى طبيعة الحركة الروحية و الكسب الروحي و طبيعة التفاوت في الدرجات و طبيعة الحسرة التي سوف تنعكس على الكسالى و الخاسرين في الآخرة، نلاحظ الروايات التي تشير الى طبيعة الكسب و هي لا تستطيع -لضعف القابل لا ضعف الفاعل- أن تشير الى واقع طبيعة الكسب و إنما تترجمها بطريقة رقمية لكي تستطيع الروح الانسانية أن تستوعب بعض هذا التفاوت الحادّ، الروايات طويلة و هي ذات دلالات واضحة و مؤثرة، الروايات في باب ثواب الأعمال كثيرة جداً، و متفرعة

جداً بل أن هناك كتاب متخصص في ذلك و نحن لا يمكننا استقصاء كل دلالات هذا الكتاب أو هذا الباب و إنما نقتصر على روايتين فقط و نلاحظ مدى إيحاء هاتين الروايتين لما نريد أن نصل إليه، الرواية الأولى ذكرها الشيخ الصدوق في كتابه المقنع تقول الرواية في الحديث عن ثواب من أحيا ليلة بشكل مطلق و لا تتعلق بشهر رمضان (من صلى ليلة تامة تالياً لكتاب الله راكعاً ساجداً ذاكراً أعطي من الثواب ما أدناه- يعني هذا أقل ما يعطاه- أن يخرج من الذنوب كما ولدته أمه- لازلنا في البداية و المقدمة- و يكتب له بعدد ما خلق الله عز و جل من الحسنات، -ماذا خلق الله من المخلوقات؟ الله أعلم ماذا خلق الله؟ بعدد هذه المخلوقات له من الحسنات -، و مثلها من الدرجات، -حيث ذكرنا أن ما بين الدرجة و الدرجة ما بين السماء و الأرض-، و يثبت النور في قلبه و ينزع الإثم و الحسد من قلبه، و يجار من عذاب القبر و يعطى براءة من النار و يبعث من الآمنين، -كل هذا ثواب ليلة و لم تنته-، و يقول الرب لملائكته: يا ملائكتي انظروا الى عبدي أحيا ليلة ابتغاء مرضاتي أسكنوه الفردوس، وله فيها مائة ألف مدينة، و في كل مدينة جميع ما تشتهي الأنفس و تلذ الأعين و لم يخطر على بال) كل هذه العطاءات مقابل إعطاء ليلة، هنا ماتملكه تملكه ملكاً اعتبارياً عندما تُعطى مليون دولار هذا عطاء اعتباري، لكن تشعر بلذة و متعة لكنه ملك اعتباري لاتدري متى تفقده أو متى تصرفه، تمسكه و أنت قلق لأنك لاتملكه تمليكاً واقعياً، في الآخرة ماتملكه فإنك تملكه واقعاً!؛ يعني عندما يقال لك أن لك مدينة أو مئة ألف مدينة يعني تملكها كما تملك قواك، الروايات تقول أن المؤمن في الجنة إذا اشتهى طائراً بمجرد أن يخطر في باله يرى الطائر فيشتهيه فإذا هو مطبوخ مشوي بين يديه لأنه ملكه، الطائر عندما يطير في مملكتك في الآخرة مثل يدك في بدنك ، تماماً مثلما أنك عندما ترغب أن ترفعها فترتفع لا بمؤونه؟! ماتملكه

في الآخرة هو كذلك، نفس شعورك بأنك تملك هكذا مُلك –هذا الشعور بحدِّ ذاته- هو لذيذ و ممتع و شعور بالهيمنة و السلطة و الربوبية، و مجرد شعورك أنك تملك هذا النوع من الملك فإنه حسن و ممتع، على سبيل المثال في الدنيا كل نوع من الأطعمة له نكهة خاصة، لكن يقال أن الطعام في الجنة كل نوع من الطعام تجتمع فيه كل لذّات الأطعمة الذوقيّة و الصوتيّة و اللمسيَّة يعني و أنت تأكل الطعام هناك في نفس المُضغة كأنك تأكل كل أنواع الطعام و هذا ليس مثل العصير الذي اختلطت فيه ألوان من الفاكهة لأن هذا يكسر بعضه بعضاً هناك يضاف بعضه على بعض هذا اللون من المتعة الذوقية فقط فضلاً عن الصوتية يقال و أنت تأكل طعام الجنة تأنس بكل ما يمكن تصوره من أنس صوتي أيضا يعني ما في هذه الدنيا من لذائذ صوتيه كلها تجتمع! و هذا تصوره صعب لأننا لم نعشه في حياتنا لانزال نتكلم عن طبيعة الجزاء الأخروي، تكلمنا في مستوى معين من الجزاء، تكمل الرواية: (اسكنوه الفردوس و له مائة ألف مدينة و في كل مدينة جميع ما تشتهي الأنفس و تلذ الأعين و لم يخطر على بال) ؛ الآن تظنون أنه انتهى عطاء الله من الحسنات و الأجر و الحمدلله رب العالمين؟ إلى الآن كل هذه ليس إلا مقدمة و لم ندخل في الجزاء الواقعي، تقول الرواية: (سوى ما أعددت له من الكرامة و المزيد و القربة)[1] و إن أكثر ما يمكن أن يتمتع به الموجود الانساني في الآخرة هو الرضوان و القربى من الله سبحانه و تعالى (و رضوان من الله أكبر) هذا فوق المدن و الأملاك و الجزاءات و ما شاكل ذلك.

[1] بحارالأنوار، ج٨، ١٨٦.

ج- تكامل الروح في عالم المطلَق على خلاف الحركة المادية المحدودة

الرواية الثانية و نكتفي بها للإشارة الى طبيعة ما يمكن أن تتفاوت فيه الحركة الروحية عن الحركة المادية وهي تتكلم عن عمل نمارسه يوميا لكن إذا علمنا ماذا يعني هذا العمل سندرك كم بإمكاننا أن نسلك لله و هو الصلوات الخمس في جماعة، انظروا كيف تحاول الروايات أن تُصوِّر لنا ماذا يعني أن تسلك إذا صليت الصلوات الخمس في جماعة، تقول الرواية الصلوات الخمس في جماعة إذا كانا اثنين كتب الله له بكل ركعة مئة وخمسين صلاة، مقابل كل ركعة واحدة لكل من الإمام و المأموم مئة و خمسين صلاة مقابل كل ركعة، و إذا كانوا ثلاثة كتب الله لكل واحد في كل ركعة سبع مئة صلاة و إذا كانوا أربعة ألفي صلاة و إذا كانوا خمسة كتب لكل واحد منهما بكل ركعة ألفين و أربعة مئة صلاة و إذا كانوا ستة كتب لكل واحد منهما مقابل كل ركعة أربع آلاف و ثمان مئة صلاة و إذا كانوا سبعة كتب لكل واحد منهما لكل ركعة تسعة آلاف و ست مئة صلاة .... إلى أن يصل إلى قوله :لم يقدروا أن يكتوبوا ثواب ركعة واحدة!، إذا كانت الرياضة البدنية و النشاط و الحركة البدنية لها معايير و ضوابط و أرقام من خلالها نحدد نتاج هذه الحركة فهذا في عالم المادة و الأرض أما في عالم الحركة الروحية فإن الانسان لا يستطيع أن يدرك مدى تلك الحركة لأن الحركة الروحية في الحقيقة ترجع إلى أن الروح تتكامل في عالم المطلق بمعنى أن الروح الانسانية تنطلق من واقع الأرض و التراب الى السماء و رب الأرباب و كم هو فارق بين الأرض و التراب من جهة و بين السماء و رب الأرباب من جهة ثانية.

نختتم برواية لزين العابدين عليه السلام يبين فيها موقع القرآن الكريم حيث يقول الإمام: عليكم بالقرآن فإن الله خلق الجنة و جعل درجاتها على قدر آيات القرآن؛ يعني القرآن هو الذي ينقلك من درجة الى أخرى، و كل العبادات تكمن قيمتها إذا كانت بميزان القرآن، ، فمن قرأ القرآن يقال له اقرأ و ارقى ، و

من دخل منهم الجنة؛ يعني من قرّاء القرآن، لم يكن أعلى درجة منه ما خلى النبيون و الصدِّيقون[1] و الحمد لله رب العالمين و صلى الله على محمد و آل بيته الطيبين الطاهرين.

[1] بحارالأنوار، ج٨، ١٣٣.

حقيقة القرآن

إنارة

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبينٌ (١٥) يَهْدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْديهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾[1] صدق الله العلي العظيم.

أشرنا الى طبيعة الحركة الروحية و أنها تختلف في معياريتها عن الحركة المادية الفيزيائية، و ما يراد من الانسان في هذا الظرف الزماني الخاص و هو رمضان هو إحداث حركة روحية متلائمة مع طبيعة ما أعطي في ظرف خاص، بمعنى أننا في هذا الشهر الكريم مدعوون إلى ضيافة الله و واضح أن هذه الضيافة هي ضيافة روحية و ليست بدنية و أشرنا بالأمس إلى طبيعة هذه الحركة الروحية و أنها لا يمكن تعييرها بالمعايير المادية و لعلنا أوضحنا هذا المعنى من خلال نموذج مُصغّر لعموم هذا المعنى و كانت عبارة عن رواية تشير الى ثواب بعض الأعمال كإحياء ليلة مثلا كيف ينعكس على الانسان بثواب ضخم و جزيل، لا يفترض أنه يتناسب مع طبيعة هذا العمل حيث يغفر له كل ذنوبه و يعطى من الثواب بعدد الخلائق و درجات مثلها ثم ينادي الله ملائكته و يباهي بعبده أمام ملائكته، و يقول أعطوه من الجنة ألف ألف مدينة و في كل مدينة ماتشتهي الأنفس و تلذّ الأعيُن و لم يخطر على بال، ثم تستطرد الرواية في طبيعة الجزاء و تقول هذا بالإضافة الى ماعند الله من القرب و المكانة.

---

[1] المائدة/١٥ -١٦.

هذه الرواية إنما تحكي عن طبيعة التفاوتات الوجودية عند البشر بمعنى أن كل انسان عندما يقوم بعمل فإنه يسبق الآخرين بهذا المستوى كما أن الرواية الثانية التي قرأناها عن الإمام زين العابدين أن المؤمن في الجنة يرفع رأسه فيرى برقاً خاطفاً فيسأل ماهذا فيقال له هذا نور أخيك فلان فيقول هذا كان معي و كنا نعمل معا فيقال له نعم و لكنه زاد عليك في العمل؛ هذا المقدار البسيط من الزيادة في العمل في الدنيا و بمعايير الدنيا قد لا نقول أنه يقتضي هذا التفاوت و لكن في الحقيقة إن التفاوت أكبر و هذا ما تنص عليه الآية القرآنية التي ذكرناها بالأمس ﴿وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضيلاً﴾ إن التمايز الملموس في هذه الدنيا -على مستوى القدرة المادية و العقلية و الفكر فتجد شخص ضعيف و آخر حاد الذهن و آخر بليد و شخص قوي الحافظة و الآخر ضعيفها- محدود و لكنها في الآخرة فإنه بعيد و شاهق جداً.

و هذا يبين لنا ما نقوله نحن الشيعة في الأئمة عليهم السلام، حيث يتصور العامّة أن دائرة الوجود و أفقه محدود و لذلك يفترضون أن الفارق بين شخص و آخر مهما تفاوتا في الإيمان فإنه لا يجب أن لا يتجاوز هذه الحدود المعروفة و الملموسة أما إذا افترضنا أن هناك أشخاص لهم مقامات و رُتب و قدرات في هذا الوجود فيتصورون أننا دخلنا في عالم الألوهية و تأليه المخلوقات و هذا ناتج عن ضيق الأفق و تحديد هذا الواسع من الوجود.

القرآن الكريم هو "الكتاب"

هذا الوجود بعيد المدى و آفاقه بعيدة و مراتبه متعالية، إن هذا الطريق البعيد و الخطوات البعيدة أيضا تحتاج الى مسلك و هادي و دليل و من هنا ما يقوله القرآن عن نفسه **(ذلك الكتاب)** يقال أن في مثل هذا التعبير والإشارة بذلك في قوله "ذلك الكتاب" يدل على أن هذا الكتاب هو وحده

فقط الكتاب حقيقة. ثم إن "ذلك" إشارة الى البعيد، في إشارة إلى أن القرآن رفيع و عالي. الآية القرآنية ﴿قد جاءكم من الله نور و كتاب﴾ هو هذا الكتاب و لكن في مراتبه النورانية، قد لا يتبادر هذا المعنى للبعض و يتصور أن هناك تعمّل في العبارة لكن لنتأمل في قوله تعالى: **(يَهْدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ)** أولاً هناك هداية الى **(سُبُلَ السَّلامِ)**، **(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ)** **(وَيَهْديهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ)** هل هذه الثلاثة شيء واحد أو أنها مختلفة؟ هل هذا التعاطف و العطف بين الجمل من باب التأكيد فقط أو أن هناك مراتب و مستويات؟

آفاق احتياجات الانسان و القرآن الكريم

من الواضح أن الانسان في ذاته ينطوي على قوى مختلفة و إمكانيات متفاوتة، الانسان لديه **إحساس و مشاعر**، و **منطق و إدراك**، **وجري عملي و سلوك خارجي** و هذه الثلاثة ميادين يدركها من يعيش طبيعة تحليل النفس الانسانية و يعالج شأن الانسان و يدرك كم أن لكل عنوان من هذه العناوين الثلاثة من مساحات شاسعة، المرتبة الأولى تحتاج الى بناء عرفاني و أخلاقي و المرتبة الثانية تحتاج الى منطقية و منهجية فلسفية و المنحى الثالث و الأخير يحتاج الى نظم اجتماعي و إلى سياسة اجتماعية. القرآن الكريم يشبع هذه الحاجات الثلاث، يشبع حاجة نظم الانسان و اجتماعه فيهديهم إلى صراط مستقيم، و يشبع حاجة الانسان على مستوى فلسفة هذا الوجود و منطقيته فهو يخرجهم من الظلمات الى النور بإذن الله و أخيرا هو يوصلهم الى دار السلام و سبيل السلام التي تأخذهم في عوالم الروح و في عوالم الأحاسيس و المشاعر. القرآن الكريم في هذه الآية و بشكل مختصر و سريع و في إشارة دقيقة جدا أشار الى هذه المراتب الثلاث!، طبعا لو أردنا أن نسير حسب التسلسل العملي و ليس المرتبي و المقامي لكُنا قلبنا الدرجات و قلنا أنه

يهديهم الى صراط مستقيم أولاً، عندما يسلك الانسان الصراط السوي و المستقيم في حياته و مسلكه و في نظم اجتماعه و في بناء تعامله مع أخوانه البشر و مع هذه الطبيعة و مع الوجود فإنه يحتاج الى بناء منظومة معرفية متكاملة تحدد له طبيعة المسير و هذا ما يؤكده الشهيد الصدر في كل كتبه أن المنهج و النظم الاجتماعي يجب أن يكون مبتنياً على فلسفة لتفسير هذا الوجود ككل، إذا اتضحت هذه الفلسفة و سار على مستوى المسلك الخارجي فإنه ينتهي به الحال الى حركة تكاملية و جدانية متسقة سوية بدل أن تأخذه تيارات الاحتمالات و التساؤلات و المناهج و الصراطات غير المستقيمة الى متيهة الروح و ضلال الأحاسيس و شراد الفكر.

الانسانية اليوم في أمَسّ الحاجة الى منهجية سلوكية تنظّم حياتها الاجتماعية من جهة و تحدد لها الصورة الواقعية الحاكية عن واقع هذا الوجود. بدل أن ننتهي الى تصورات و تخيلات اعتباطية تخلقها الأوهام أو العقول المغلوطة لأنه ما لم نوجد هذا اللون من الصراط السوي و ما لم تكن عندنا معطيات عقلية فلسفية واضحة فإن أرواحنا ستبقى غير مهتدية إلى سواء السبيل، و من هنا ما ذكرناه من أن هناك خطوات سهلة و بسيطة تأخذ بروح الانسان الى مستويات الترقي و الكمال و البهجة و المتعة و الأنس بهذا العالم، و تحقق للانسان غرض وجوده، إننا نحتاج للقرآن الكريم في كل هذه الأمور لأنه ينطوي على المراتب الثلاث.

العلاقة بين مراتب الحقيقة القرآنية و الانسان

إن للقرآن الكريم في مرتبته الدنيا و في وجوده الدنيوي تجليات خاصة؛ لأن القرآن الكريم الذي بين أيدينا والذي بين الدفتين هو المرتبة النازلة من الحقيقة القرآنية الذي لايمسه إلا المطهرون، هناك للقرآن مراتب واقعية تكوينية و أن الذي نزل في ليلة القدر غير الذي نزل نجوماً على رسول الله صلى الله عليه وآله

في بعض الحيثيات، و هذا الترتب في الواقع القرآني هو الذي أوقع متكلمي المسلمين في بداية الحركة الإسلامية في مخمصة أن القرآن قديم أو حادث!، لأن بعضهم لاحظوا المرتبة العليا الذي هو من الصفات الإلهية التي تحكي عن العين الربانية فهو قديم و لكنه قام بتسرية القدم حتى الى ما هو بين الدفتين من كتابة و جلد و قراطيس و مداد؛ يعني القرآن الكريم له مراتب و هو في مراتبه يتجلى في كل مرتبة بلون من الألوان لا أنه له حقائق متمايزة كل حقيقة تختلف عن الحقيقة الثانية، يعني القرآن الكريم شيء واحد و نور واحد، شبيه بالحقيقة الانسانية أنت أيها الانسان و إن كان منبتك الأرض و إن كان أصلك هو هذه المادة التي تتحول من خلال حركة جوهرية الى روح و هذه الروح تترقى و تصبح نفس انسانية ثم تتسامى هذه النفس الانسانية الى تصبح عقلاً مجرداً ثم بالكاد تتسامى الى أن تصبح من عالم الأرواح و الملائكة، و هناك لك طريق مفتوح الذي أشرنا إليه من أن طريق الكمال الانساني يمتد إلى مستويات عالية من هذا الوجود، هذه المراحل في الترقي ليست متمايزة، أنت في حركتك الوجودية التي تمر بمراحل ومستويات من التجرد والترقي تحفظ على نحو من الوحدة مع كثرة المراتب ، كذلك هو القرآن الكريم حيث له حقيقة واقعية واحدة ولكن له تجليات، أدنى تجلياته هذا الموجود بين الدفتين الذي نقرؤه و هو قابل لأن نتعامل معه كتعاملنا مع أي مادة أخرى، هذا القرآن ينطوي على دلالات و معاني مرتبطة بواقعه المراتب الرفيعة والعالية لأنه هو ليس إلا ذاك، مع اختلاف المراتب والتجليات .

دراسة تأثر الحركة التاريخية للانسان بالقرآن

و من هنا نفهم و نجيب عن سؤال لابد أن يسأله كل عاقل وهو كيف استطاع هذا الكلام المجموع بين الدفتين أن يفجّر حركة في بداية الرسالة الإسلامية؟ أن يستنهض أمة جاهلة ممزقة فيجمعها و يستثير في أعماقها

نهضة بشرية لها امتدادات و ارتدادات و آثار حتى الآن؟، و ستبقى هذه المُكنة و الطاقة و القدرة الإشعالية و الاستثارية منطوية في هذا النص القرآني و في هذا الكلام الذي هو مجرد ألفاظ مكتوبة لكنها تنطوي على مكنة بشرية ضخمة!، إنما هو ينطوي على ذلك لأن هذا ليس هو كل القرآن بل هذا هو التجلي الأخير و الظهور الأخير للحقيقة القرآنية. نحن في دراستنا للقرآن إنما ندرس هذا الذي بين أيدينا فلا يمكننا التعامل مع ذاك إلا من خلال هذه النصوص و الألفاظ، من خلالها نسلك إدراك و تتبع و تلمس المعاني السامية التي ينطوي عليها القرآن الكريم لكي يكون لنا هداية و رشاد على المستويات الثلاثة التي أشارت لها الآية القرآنية، على مستوى السلوك و المنهجية السلوكية الواقعية التي نسلكها نحن في حياتنا، ثم يخرجنا هذا من الظلمات الى النور على مستوى الإدراك و الفهم وتفسير معنى هذا الوجود و لا نعيش حالة من الغبش و الضلال و الاحتمالات و المنطقيات البائدة السائدة، ثم ننتقل بعد أن نتأمل في واقع هذا الوجود الى أن نعيش بمشاعرنا و أحاسيسنا في فهم صافٍ بل في معايشة واقعية، فرق بين أن تفهم الوجود و أن تعيش هذا الوجود حتى تتناغم مع منطقه و حركته، و تجد أن الجبال و السماوات كلها تتأوّب معك و تسير معك و تتناغم مع تسبيحك و ذكرك كما جعل الله جل و علا السماوات و الأرضين و الجبال و الطير كلها تتناغم مع زبور داود فهي كذلك تتناغم مع كل من يسلك المسلك الصحيح، عندها و عند ذاك فقط سوف تسعد في واقع وجودك و سوف تجد من أعماقك أن القرآن استطاع أن يوصلك الى حالة من السعادة و الأنس و هو هذا حقيقة الجنة كما يقول الفلاسفة الجنة ليست هي إلا نفس الأعمال التي تقوم بها أنت وتحصلها و الصفات و الخصائص التي تجمعها أنت من جهة الإدراك و من جهة الأحاسيس في أعماقك عندما تنفصل الروح عن البدن سوف يجد الانسان ماعمله مُحضراً.

نرجو من الله سبحانه و تعالى أن يوفقنا و إياكم إلى قراءة القرآن قراءة صحيحة صائبة لكي يكون لنا هداية و رشاد و يخرجنا من الظلمات الى النور و حتى يبلغ بنا الى رضوان سبل السلام و الحمد لله رب العالمين.

القرآن: منطق، لغة، وفنّ

قال الله تعالى في استعراضه للحوار الذي دار بين نبي الله موسى و الخضر عليه السلام قال الخضر ﴿قالَ هذا فِراقُ بَيْني وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْويلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا السَّفينَةُ فَكانَتْ لِمَساكينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتيمَيْنِ فِي الْمَدينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْري ذلِكَ تَأْويلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾[1]

القرآن: روح الانسان

في ما مضى كنا نقول أن ما بأيدينا من كتاب و هو هذا القرآن الكريم إنما هو التجلي الأدنى للحقيقة القرآنية إذ أن للقرآن مراتب و واقع تكويني أسمى من هذا الذي نتوهمه نحن، فللقرآن الكريم واقع نوراني متجلي في مرتبته و يتنزل هذا القرآن إلى أن يصبح عبارة عن مجموعة من الكلمات التي يمكن ضبطها و تسجيلها في ضمن هذا الكلام، فهذا الكلام عندما نقول أنه الوجود المتدني لا نعني أنه هو في ذاته دني و إنما هذا القرطاس و هذا التسجيل و هذه الكتابة و هذا الظرف هو الحد الأدنى في التجلي القرآني! حقيقة القرآن و روحه هي هذه المعاني و المقاصد و الأنوار المتضمَنة في ضمن هذا الكلام، فهذا الكلام في حقيقته ينطوي على كل تلك الأنوار و لكن في

[1] الكهف/ ٧٨-٨٢.

لباس و جلباب هذه الكتابة و هذا ما يقال أيضا في حق الانسان من أنه في الحقيقة هو نفحة ربانية، روح الانسان هو نور و هو نفحة إلهية سامية إلا أنه في مرتبته الدنيوية داخل هذا اللباس البدني يسمى انسانا و إلا حقيقة الانسان و جوهره هو نور و كمال وهو من الروح الإلهية. أشرت في ختام الجلسة الماضية أننا سوف نتكلم عن هذا الكتاب و هذا القرآن و العبائر التي بين أيدينا من حيث إنطوائه على ذلك النور، نحن لن نتكلم عن ذلك النور الذي لا يمسه إلا المطهرون الذي هو عند ذي العرش في مرتبته و واقعه التكويني الذي تجلت منه هذه النورانية، و من خلال هذا الفهم لطبيعة القرآن نفهم ماذا يعني أنه أُنزل في ليلة القدر الذي أنزل في ليلة القدر إما للسماء الدنيا الذي أنزل للرسول ﷺ على قلب نبينا محمد ﷺ هو كل النور و مجموعه و خلاصة القرآن و ماجرى على لسان الرسول ﷺ خلال الثلاثة و عشرين سنة هو هذا التفصيل لنفس ذلك الواقع. إذن فهِمنا الآن أن هناك واقع و مرتبة واقعية للقرآن و هناك مرتبة مسجلة مقروءة للقرآن الكريم. هذا القرآن الكريم الذي بين أيدينا بألفاظه و كلامه و المسجل الذي نقرؤه له ثلاثة أبعاد و جهات يجب أن نلاحظها. للقرآن منطق و لغة و فن، تارة نلاحظ في القرآن الزاوية المنطقية فيه و أخرى نلاحظ الحيثية اللغوية فيه و ثالثة نلاحظ الجهة الفنية في القرآن، و لكي تتضح العناوين الثلاثة سنجعل الآيات التي استفتحنا بها نموذج لهذا المعنى.

١/ منطق القرآن

أ-تطابق المنطق القرآني مع الواقع التكويني

الألفاظ في القرآن تكشف عن أن القرآن يتعامل مع الأمور بغاية المنطقية بمعنى أن القرآن و هذه الألفاظ التي ربما تتكلم عن الجن و عن العرش و القلم وغيرها ، كل هذا الكلام مطابق تماما لواقع الوجود و متّسق

مع حقيقة هذا الوجود من غير أي لون من ألوان التجوز و الكناية، البعض يحمل بعض الآيات القرآنية -إذا لم يفهم ظاهرها- على الكناية كتنزل الملائكة مثلا بينما الحقيقة أن القرآن الكريم دقيق في تعابيره لا يتجاوز الواقع أدنى أنملة. كنموذج لهذا المعنى لنتأمل الى أحد جهات الدقة الفلسفية المنطقية التي يلتزم بها القرآن الكريم -كما سنلاحظ في ما يلي- حيث سنجد هناك ظواهر قرآنية لا تمثلها إلا اختصاص القرآن بلغة خاصة ثم سوف نشير إشارة عابرة الى طبيعة الفن القرآني في أثناء دلالته لهذه المعاني.

القرآن الكريم أثناء معالجته للواقع يلتزم بما للواقع من حاق و حقيقة و تجسُّد، نحن مع الأسف نعيش مع أوهام و تصورات نحن نخلقها و القرآن الكريم لا يتكلم بلسان عقولنا و إدراكاتنا بمقدار ما يتكلم بلسان الواقع و الحقيقة.

ب-دقّة القرآن في التعبير عن الو اقع التكويني

كنموذج لهذا المعنى لاحظوا كيف ميز حيثية الصدور وجهته –صدور أي شيء و حدوثه في الخارج- ، القرآن هكذا يعبر ﴿أَمَّا السَّفينَةُ فَكانَتْ لِمَساكينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعيبَها) هنا فأردتُ ثم في مورد آخر يقول: (وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتيمَيْنِ فِي الْمَدينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ﴾ إذن هناك أردت و أردنا و أراد و المسألة ليست مجرد تفننات بلاغية و ليست مجرد ألوان من التعبير يختار القرآن بعضها دون بعض اعتباطاً أو لأي حيثية أخرى و إنما يعبّر القرآن في هكذا أمور لأن الحدث الخارجي يستدعي مثل هذه التعابير –وهذا نتيجة مباني فلسفية في طبيعة الصادر في الخارج الذي أوقع المسلمين في بداية الحركة الإسلامية في مخمصة أنه كيف نوفق بين إرادة

الانسان من جهة وإرادة الله من جهة ثانية، فإن قلنا أن للانسان مشيئة نقع في الشرك و تعدد المشيئات و إن قلنا أنه لا مشيئة للانسان فيوقعنا ذلك في الجبر و قبح التوجيهات الإلهية إذ لا معنى لتوجيه الأوامر للمخلوق المجبور.

هذا الفهم في الطولية في طبيعة الإرادات بأن هناك إرادة ربانية حاكمة و أن هذه الإرادة الربانية حال صدورها في الواقع تجري من خلال الانسان و الموجودات و أحيانا تكون الإرادة مشتركة و أخرى تكون الصادر في الخارج كله إذا كان قبيحاً و إن كان في ضمن الإرادة الإلهية و لكن يُنسب لمصدرٍ القبيح لا لله عز و جل فالصادر في الآية الأولى في الخارج ماهو؟ الإعابة (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعيبَها)، الإعابة حدث سيء ١٠٠٪، أن تعيب الشيء حدث سلبي قبيح ليس لله فيه أي نسبة و لا ارتباط! هنا لم يقل أراد ربك و لم يقل أردنا أنا و الله، بل نسبه لنفسه هو، أردته و أحدثته، (أَمَّا السَّفينَةُ فَكانَتْ لِمَساكينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعيبَها) هنا الفعل الذي تعلقت به الإرادة و هو الإعابة ليس من الله في شيء، ثم الحدث الذي هو في نفس الوقت الذي ينسب لله و مخلوقات فيعبر بأردنا (فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما) الإبدال حدث واضح أن له حيثيتان أخذ و إعطاء بديل، فمن حيث أنه أخذ هو ليس من الله بل مني و الإعطاء من الله جل و علا، فالإبدال الذي هو مركَّب من وجهين أي فيه أخذ و عطاء هو منسوب لهما (فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما) و في مرحلة ثالثة حيث يكون الصادر هو جميل محض و خير محض و إيتاء محض يقول القرآن (فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما) بلوغ الأشُد و الترقي و بلوغ المراتب العليا من الكمال، و التفاوت بين المرتبة الدنيا و العليا هذا إرادة ربانية و إيتاء و إعطاء رباني، هذا من الزاوية المنطقية في الموضع. هذا معنى أن الأنوار القرآنية تخرج الانسان من الظلمات إلى النور.

ج-ضرورة الإلمام بنتاج الفِكر البشري في فهم التكوين

هناك ملاحظة تجدر الاشارة إليهامن خلال هذا النموذج المذكورة في هذه الآيات ، وهو أن من يريد ان يقرأ القرآن لا يصح منه أن يقصر نظره فقط على الضمائر في الآيات ومرجعها بل يجب أن يلاحظ كل المناحي القرآنية سيجد أن القرآن ينطوي على مطالب عرفانية و فلسفية دقيقة جداً و كلها متوافقة مع طبيعة الواقع و لكي نفهم القرآن فهماً حقيقياً يتوجب علينا أن يكون عندنا مقدار و لو متدني من طبيعة هذا الوجود لكي نفهم اللغة القرآنية، و لكي أوضح هذه المسألة فرق كبير بين أن يتحدث مثلا المتخصص في الطب مع طلبة علوم طبية فإنهم بلاشك يفهمون كلامه و دلالات معانيه و مغازي مراداته و مَدَيات مقاصده بينما لو تكلم هذا الدكتور في مجلس عام من المثقفين فضلا عنه عندما يتكلم في مجلس فيه كبار السن من قليلي الثقافة و محدودي الاطلاع فلاشك في أنّ طبيعة المعاني سوف تكون أقرب للإبهام و التداخل، كلما كانت الخلفية الذهنية للمستمعين أبعد عن استيعاب المعارف و أبعد عن الإحاطة بخلفيات الموضوع، كلما كان الذهن أقلّ إحاطة بلغة المتكلم و مناحي مقاصده، و تكون المعاني التي يبرزها المتكلم أوضح و أجلى و أتم دلالة و أبعد أثراً في إيصال المعاني الى المخاطبين إذا كان لديهم إحاطة بلغة المتكلّم. نحن لا نستطيع أن نفهم تمام مقاصد القرآن الكريم إلا إذا اطَّلعنا و أحطنا بمجموعة غير قليلة من مقوِّمات الفلسفة الناضجة التي انتهى إليها الفكر الإسلامي اليوم.

طبعا متابعة العناوين الفلسفية في تفاصيلها لن يكون متأتياً في مثل هذه الجلسات بل هناك دوائر خاصة و موارد خاصة لفتح هذه المسائل- لكن نحتاج فعلاً لتحليل ولو في خطوط عريضة لمثل هذه الإصطلاحات أن **(الواحد لا يصدر منه إلا واحد)، (بسيط الحقيقة كل الأشياء وليس بشيء منها)، (داخل في الأشياء لا بممازجة خارج منها لا بمباينة)**. هذه المعاني كلها

يمكن أن تتكشف بها المعاني القرآنية، أتصوَّر أنَّ هذه المصطلحات تشكل في عمومها القواعد الأساسية في الفهم الفلسفي الناضج التام لكل ما في هذا الوجود و بما أن القرآن الكريم يخاطبنا على أساس هذه المعارف و المعطيات، فإننا إذا فهمناها و فهمنا كيف أن القرآن الكريم يتقوم بها سوف تنحل أمامنا كثير من المعاني التي يبدو فيها نوع من التجوز و عدم الوضوح و التجسيد و ما شاكل ذلك من الأمور التي تنحل بمجرد أن نفهم السقف المنطقي الذي يتكلم به القرآن الكريم، و كل هذا إنما هو في سقف من سقوف الخطاب القرآني.

٢/ لغة القرآن

قدرة الانسان على فهم القرآن

زاوية أخرى ينبغي أن نهتم بها و هي لغة القرآن الكريم، السؤال الذي يطرح هنا هو هل القرآن يُفهَم من الأصل أم لا؟ هل هو يُخاطب عموم الناس أو أنه يخاطب مجموعة خاصة من الناس؟

١- رأي الإخباريين

هناك من يرى أنه لا يمكن فهم القرآن بالاعتماد على ظواهره ودلالاته اللغوية كالأخباريين أو تيار كبير منهم حيث يقولون أن القرآن دلالات القرآن وظهوره اللغوي ليس بحجة وهم فقهاء شيعة من أهل العلم و المعرفة، قالوا القرآن ليس بحجة! لا أنه أقل من الحجة بل لأنه أرفع من الحجة، يقولون الحجة كلام المعصوم عليه السلام فقط، و القرآن كله خارج عن الحجة لأن القرآن لا يخاطب عامة الناس و إنما يفهمه من خوطب به ، و هم أهله العارفون به. لأن القرآن يتكلم بلغة واقعية فلسفية.

يقول الأخباريون أن القرآن الكريم جاء بمعاني دقيقة و عميقة لا يفهمه عموم الناس فهو ليس بحجة إنما يفهمه أهله و نحن إنما علينا اتباع كلام أهل البيت عليهم السلام الذين هم ترجمان القرآن و الذين هم سبيلنا إلى فهم القرآن

الكريم و أما التعامل المعرفي مباشرة مع القرآن الكريم فهو تعامل خاطئ لأن معاني القرآن الكريم دقيقة و بعيدة الغور لا يمكننا أن نبلغها!، هذا مشرب في التعامل مع القرآن ينتهي الى إسقاط حجية ظواهر آيات القرآن.

٢- نظريّة الهرمنوطيقيا

هناك مشرب آخر أثير في الفترة الأخيرة وخصوصاً في الساحة الثقافية في الجمهورية الاسلامية و هو تحت عنوان (الهرمونيطيقيا) وتعدد القراءات.

أتباع هذه النظرية يتكلمون عن النص المقدّس -يعني أن كلامهم أعم من القرآن- فتشمل كل النصوص المقدسة، ويرون أنه لتبين دلالات هذه النصوص نحتاج أن نرجع إلى تاريخ النصوص المقدَّسة من التوراة و الإنجيل و كيف أنها دخلت في حقبة تاريخية من الترجمات و الضياع وتنقلات حتى وصلت لأهلها مما أوقعهم في حالة من الشك في مضمون تلك النصوص مما أدى الى انفتاح باب تعدد القراءات بينما القرآن الكريم نجى من هذه المخمصة، و من يريد الاستزادة فليراجع كتاب الميزان في تاريخ التوراة وليلحظ مسير الترجمة مثلاً من العبرانيّة إلى اليونانيّة ثم من اليونانية ،وفي مرحلة من مراحل بني إسرائيل حيث فقد الجميع النص المنزَل من الله جل و علا في فترات متطاولة و لم تبق إلا في صدور بعضهم فلا يوجد أي مرتكز علمي للاستناد عليها،مما دعاهم إلى القول بأن طبيعة اللغة هي مجموعة ألفاظ نتوسل بها لتحميلها معاني و مشاعر و تصورات لإيصالها إلى الناس، هذه اللغة مهما أوتيت من الإحكام و الحبك فهي بالنتيجة آلة اعتبارية يقع فيها في كثير من الأحيان حالة من اللبس في القصور من المتكلم أو التقصير من السامع أو عدم القدرة أو سوء فهم فليس من الضرورة أن كل ما أقصده و أحتويه من معاني تستطيع هذه الآلة التواصلية أن تؤديه إليك بكل أمانة، لابد أن يحصل هناك خلل، هذا بين المتخاطبَين المتعاصرَين الذَين يعيشان في

جو ثقافي و اصطلاحي مشترك، فكيف بالألفاظ التي كانت تريد أن تحكي معاني و عبائر و مفاهيم في مرتبة تاريخية تنقلها إلى انسان يعيش جو آخر و مصطلح آخر و مزاج آخر؟!! مثلا في الدائرة العرفيَّة من الفارسي إلى العربي لو أراد مُترجِم أن يترجم كلام فارسي للعربي أو العكس، العربي يعيش مفاهيم و أذواق و فكر و خلفيات كلها يُضمّنُها لغته،و ترجمة بعض الجمل تحتاج أولاً الى تحليل طبيعة المزاج العربي وتبيين الفرق بينه و بين المزاج الفارسي لتفسير معنى هذه الكلمة التي وقعت في البَين، إن بعض التعليقات على المرأة في البيئة العربية البدوية مثل (أعزَّكم الله) تفسيرها ينطوي على ثقافة تاريخية تنطوي على كل ما في ذهنية و بناء العربي من مشرب و مزاج و إحساس تجاه المرأة في تاريخه العربي الطويل من إحساس بقصور المرأة و لعل هذا الإحساس ناتج واقع اجتماعي و جغرافي و اقتصادي، المرأة في الساحة العربية لا مكنة لها و لا قدرة لأن العرب عادة في تاريخهم الطويل يعتمدون على القوة و الغلبة و السلاح و الهيمنة و هذا ليس من شأن المرأة فيصبح دور المرأة في زاوية الحركة الاجتماعية، بينما دور المرأة في بيئة تختلف عن هكذا بيئة مثل إيران مثلا فللمرأة دور اقتصادي كبير و في الحياة المنزلية مما يعطيها ثقة، كل هذه العناصر تشكل خلفية ثقافية في ذهن العربي، كل هذا التاريخ و هذه العناصر يضغطها العربي البدوي في اصطلاح صغير و يدرجه ضمن الكلام و يقول (أعزَّك الله)! كيف نترجم هذا اللفظ و نحوِّله بما ينطوي عليه من معاني و دلالات؟! و من هنا قال هؤلاء أنه إذا أصبحت لفظة بسيطة بهذا المقدار قادرة على أن تتضمن كل هذه المعاني فكيف يتحول القرآن ذو الألفاظ الكثيرة للدلالة على مقاصد لكل الأمم و كل الملل؟ كيف يوصل هذه المقاصد بما تنطوي عليه من معاني و دلالات؟

مقارنة بين النظريتين

يبدو أن النظريتين تنتهيان الى نفس النتيجة مع اختلاف في أن الإخباريين يرون أن القرآن يهدف إلى معنى و أنّ محصّل اللفظ القرآني ينتهي الى معاني لكن هذه المعاني لا تطالها عقول الرجال كما ورد في ظواهر بعض الروايات، أي أنّ هذه المعاني فوق القدرة الانسانية على الإحاطة و إنما يحيط بها أهلها من ذوي العصمة.

٣- النظرية المختارة: القرآن نور و هداية

هنا يحتاج تفسير القرآن الكريم الى ملاحظة مجموعة ظواهر قرآنية كما ذكرنا في مرتبة منطق القرآن، نحتاج الى تفصيل مجموعة **معطيات عقلية** في فهم هذا الوجود لتعيننا على فهم المنطق القرآني، نحتاج إلى الإحاطة بمجموعة **ظواهر قرآنية** لكي نستطيع أن نتعامل مع اللغة القرآنية مثل مسألة الظاهر و الباطن و المثال في القرآن و غيرها من المصطلحات التي أشرت إليها و التي لن نبحثها و إنما فقط أشير إلى أن هذه المفاهيم و المسائل تحتاج إلى معالجة و حلّ و ما لم تُعالَج لم يكن التعاطي مع القرآن الكريم تعاطياً سليماً كما أننا نحتاج إلى مجموعة من المقدمات الفلسفية العقلية، القرآن نور و هداية و رشاد و يُطلب من الجميع أن يقرأ القرآن و يعتبر به و يتأمل فيه و يتدبر، لأن القرآن يخاطب الجميع و يحادث جميع الأرواح و الأنفس و لكن بعد معالجة هذه الجهات، مثل معالجة ظاهرة المثال في القرآن الكريم و القرآن كله أمثال، بعد معالجة المحكم و المتشابه في القرآن و القرآن كله محكم و متشابه، و إن كان هناك آية قرآنية تقسم القرآن إلى محكم و متشابه و لكن القرآن كله محكم و كله متشابه و يجب أن نفهم ماذا يعني المحكم و المتشابه؟ وكذلك بالنسبة للناسخ و المنسوخ في القرآن الكريم و كل هذا سقف ثاني من أسقف التعامل مع القرآن الكريم.

٣/ الفنّ القرآني

هناك سقف ثالث و هو الفن القرآني، القرآن جاء يتكلم بلغة منطقية محكمة و يتكلم بلغة معينة، فإنّ من يطّلع على طبيعة اللغة القرآنية يفهم من القرآن الكريم كما يقول العلامة الطباطبائي بعضه يحكم على بعض و بعضه ينسخ بعضاً، و بعضه يفسر بعض فهو مثاني يثنى بعضه على بعض و يؤيد بعضه بعضاً، إذن هناك بُعد ثالث في القرآن الكريم و هو أن القرآن الكريم لم يأتِ ليخاطب عليّة القوم و النخبة من المثقفين و لم يأتِ ليضع قواعد علمية تفصيلية و إنما جاء إنارة و هداية و رشاد و حياة و باعثية في نفوس الناس و هذه الحيوية و الحياة في القرآن الكريم تحتاج إلى بُعد غير البعد الدقّي العلمي و غير البُعد اللغوي، تحتاج الى بعد عاطفي من هنا لبست هذه المعطيات الواقعية التكوينية الدقيقة و هذا العرض المتكامل للواقع الانساني لباس ناعم من القصص و التكرار و الإعادة و الإيقاع و إلا مامعنى أن تتكرر بعض المعاني؟ هذا التكرار يكشف عن أن القرآن الكريم لم يأت ليوصل هذه المعاني فقط ككتاب أكاديمي علمي للمتخصصين و إلا كان بإمكان الرسول ﷺ أن يجزّء القرآن الكريم ويصنفه في الأحياء و العلوم و المجتمع و السياسة و يعطي كل ناس متخصصين بُعدهم الفني ،وكما يشير الشهيد محمد باقر الصدر ليس القرآن الكريم كتاباً علمياً صِرفا و إنما يأخذ بمجموع هذه المعارف الانسانية، و من خلال لغة خاصة يلبّسها لباس الحياة و العظة، العظة ليست هي مخاطبة الفكر بمقدار ما هي إثارة المشاعر و الأحاسيس، الإرشاد ليس هو الهداية إلى السبيل فقط و إنما الإرشاد هو التحفيز على اختيار هذا السبيل أيضا.

هذا المجموع الثلاثي إذا صح التعبير من الدقة العقلية و اللغة السهلة من الفنون الخطابية تلبس بمجموعها هذا الكمّ من العاطفة و الإحساس و الحياة لتتحول إلى مجموعة ألفاظ، و في الحقيقة هذه العناصر الثلاثة إنما

كانت هي العناصر الأساسية و ذلك لأن طبيعة الانسان تنطوي على هذه القوى المتفاوتة، فالانسان تجده في بعض الأحيان يميل إلى أن يفهم الأمور فهماً صرفاً ثم في مرتبة ثانية تجده في حالة استقبال لاستيعاب المعاني، و في مرتبة ثالثة يتفاعل عاطفياً؛ لاحظوا الآن الموسيقى العسكرية و النغمات لاتخاطب عقل الانسان و لكنها تستثير مشاعره و تحفز اندفاعاته و أحاسيسه، القرآن الكريم بما أنه كلام إلهي جاء ليعالج كل أبعاد الانسان و جاء يؤثر في كل الخصائص الانسانية ليوصله الى الكمال و الهدف المقصود.

نحتاج الى استعراض مجموعة من المصطلحات الفلسفية من جهة و الوقوف أمام مجموعة من الظواهر القرآنية ثم الإشارة الى بعض التفننات التي ينطوي عليها القرآن الكريم و الحمد لله رب العالمين.

منطق القرآن و تدرُّج الفكرالانساني فيه

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (٣) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[1].

محوريّة التوحيد في القرآن الكريم

هذه السورة هي ثلث القرآن و هي من السور المتميزة في القرآن و ذلك أن القران الكريم جاء بمشروع بناء حضارة بشرية متكاملة في كل أبعادها لتشبع حاجة الانسان في هذا المشروع الحضاري، و كان التوحيد هو أساس هذا المشروع و من هنا نجد أن القرآن الكريم لا تخلو فيه صفحة ولا آية و لا سورة إلا وتكون مرتبطة بأساس التوحيد، يعني السور القرآنية و الآيات إما أن تكون مرتبطة بمسألة التوحيد أو نص في باب التوحيد أو أنها مترتبة و متعلقة و ثمرة من ثمار التوحيد حتى في ما يرتبط بشؤون الانسان الأسرية و الإرث و الأحكام الفقهية و ما شاكل ذلك، كلها في القرآن الكريم تجدها تنطلق من التوحيد و تعود الى التوحيد بل إن التكاليف كلها في الحقيقة إنما هي مقدمة لبلوغ الروح الانسانية الى حالة من التوحيد الصرف، و من هنا نجد أن فكرة التوحيد و ثقافة التوحيد في البناء القرآني تحكي عن محور أساس من المحاور التي جاء بها القرآن الكريم، من هنا أتصور أننا إذا فهمنا التصور التوحيدي الذي جاء به القرآن الكريم ستتضح لدينا كثير من أساليب القرآن و طرقه في الأحاديث، قد تظهر في بعض الأحيان الآيات القرآنية بمظهر القصص و الحكايات و الإشارات التاريخية إلا أن من يتأمل فيها يجد أنها كلها ترتكز على

[1] الإخلاص/ ١-٤.

هذا الأساس و تتمحور حوله، و من هنا يجب أن نفهم البناء التوحيدي في القرآن الكريم.

مقدمة نقول أنَّ العارفين بالقرآن مثل العلامة الطباطبائي يقولون: أنه لايوجد في الفكر البشري الفلسفي و الديني طرحاً توحيدياً خالصاً كما هو الحال في القرآن الكريم، و من هنا لعلّ دعوى أن ماجاءت البشرية بتوحيد خالص في غاية التجريد منسجم مع فطرة الانسان كما هو التوحيد المحمدي الذي وهبه الله الانسانية على يد رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ وجهة، و لكي تتضح الصورة اذكر المثال التالي: لو سألتَ بعض الأشبال أين هو الله؟ لقالوا في السماء، ثم إن سألتهم: أين هي السماء: تحت أم فوق؟! لقالوا: السماء فوق!! وهم متعجّبون من السؤال لأنه هكذا يقال عادةً، فإن قلتَ لهم موضّحاً أنّ السماء الآن هي تشير إليها بأصبعك هي فوقك، لكنها بعد ١٢ ساعة سوف تكون تلك السماء تحتك لأن الكرة الأرضية سوف تدور نصف دورة وماكان فوق سوف يصبح تحتاً، البعض يتصور التوحيد و أنّ الله في السماء أو فوقنا بهذه السذاجة!، غافلاً عن أنّ الله ليس بجسم و لا يتحيّز في حيّز أو مكان بالتالي هو سبحانه لا يقبل الإشارة الحسيّة.

تدرّج الانسان في فهم التوحيد

التوحيد عند المشّاء

الطرح الشائع لمسألة التوحيد هو الطرح المشائي حيث أن المدرسة المشائية تقسم الوجود إلى واجب الوجود و ممكن الوجود. واجب الوجود جل و علا في عالمه و سمائه و ممكن الوجود هو هذا العالم الذي نلمسه و نعيشه!، الله جل و علا موجود مجرد في السماء ثم أوجد هذا العالم. الان تأتي مشكلة الانفصال بين الواجب جل و علا و الممكن، لأن الممكن داثر و متحيز ومادة و متغير وهي لوازم الوجود الممكن. و الواجب جل و علا مجرد مطلق في

السماء، هذا هو التصور الشائع فيحصل حالة من الاثنينية و التعدد و هذا ما يسمى بتعدد الوجود و الموجود ، تعدد الموجود يتبعه تعدد الوجود لأن كل موجود يلتصق به وجود ويحقق وجودا ، لو وجد أربع أشخاص من أفراد الانسان كل واحد في غرفة، كم مصداق من الانسانية موجود؟ أربعة مصاديق تبعاً لتحقق الانسان، فكل موجود يتبعه وجود مستقل قائم بذاته. هذه هي النظرية السائدة في التعدد و التكثر و يقرر فيها أن الوجود مزدحم بالكثرات التي يشكل الواجب أحدها.

التوحيد عند الصوفيّة

هناك حركات صوفية طرحت اصطلاح وحدة الوجود و الموجود فقالوا أن كل ما في هذا العالم إنما هو وجود الله جل و علا و مانتخيل أنه موجودات أخرى هي ليست موجودة في الحقيقة وأن هذه الموجودات المتكثرة إنما هي أوهام، كل ما في الكون وهمٌ أو خيال أو عكوسٌ أو مرايا في ظلال[1]،يعني كل ما في هذا الوجود إنما هو وجود الله جل وعلا فقط لاغير، و هذا يسمى وحدة الوجود و الموجود يعني فقط الموجود هو الله جل و علا و بقية الموجودات إنما هي خيالات و ظلال و لهذا القول لوازم فاسدة كثيرة منها أنّ كل مانلمسه هو الله جل و علا طبعا كلام الصوفية يُحتمل فيه وجوه و يُحتمل أنه يرجع إلى كلام ملا صدرا، و لكن ما يظهر من عبائرهم -كما أبرزه بعض الصوفية من شطحات- تجسيد الله و تمثّله كما يُنسب إلى بعضهم أنه كان يقول (ما في الجبّة إلا الله) أو ما شاكل ذلك من العبائر التي يُستوحى منها أنهم كانوا

[1] نعم!، العرفاء أمثال محيي الدين ابن عربي يقولون بأن الوجود له مظاهر كثيرة و يسمون تلك المظاهر أوهام وظلال حسب اصطلاحاتهم العرفانية.

يعتقدون أن الله جل و علا قد حل في هذا العالم المادي و أنه لايوجد هناك تكثّر حقيقي البتة.[1]

التوحيد عند ملاّ صدرا

أكّد ملا صدرا في هذا الباب على اصطلاح وحدة الوجود، هذا الاصطلاح السائد يتكرر كثيراً، و لكن في تفسيره يوجد تشويش لكن مع وضوح فكرة ملا صدرا التي تحسس منها بعض الأوساط العلمية و لعلهم خلطوا بين طرح ملا صدرا و طرح الصوفية فحصل نوع من التداخل و الرفض في الأوساط الدينية خاصة في أوساط الحوزة. هنا على المستوى التاريخي هناك حالة تحسس من قبل الفقهاء تجاه المتكلمين، فالمتكلمون هم من يستدلون على مقاصد الدين من خلال القرآن و بعض الأدلة العقلية ثم جاء الفلاسفة الذين قدموا لوازم عقلية كثيرة فسّروا بها الدين فتحسس الفقهاء و المتكلمون من الفلاسفة و أصبح هناك خصومة تاريخية في المزاج الفقهي من جهة و في المزاج الفلسفي من جهة أخرى، ثم جاء العرفاء و جاءوا بمعطيات جديدة أوحشت حتى الفلاسفة، فالفلاسفة استوحشوا من العرفاء، و هؤلاء الفلاسفة تعرضوا للتكفير من قِبل المتكلمين، و الفقهاء كفروا المتكلمين من الأساس!!. بينما السيد الإمام الخميني ﷺ كان يقول أن الفكر الديني و الثقافة الدينية كانت تقوم على أساس توازن جناحين: جناح الفقه من جهة الذي يسمى الطريقة و جناح الفلسفة و الحكمة و العرفان من جهة ثانية الذي يسمى الحقيقة بحيث يكون هناك توازن في الحركة الثقافية و الوعي الديني بين هاتين الجهتين.

---

[1] و إن ذكر العرفاء توجيهات إلى هذا القول، و هذه معاني متداخلة متقاربة، ونحن لسنا في صدد تسجيل موقف.

نرجع الى طرح ملا صدرا في مسألة التوحيد حيث يقول أن الموجود متعدد لكن الوجود واحد، يقصد أن هناك تعدد ولا يمكن إنكاره وكل فرد منا يمثل موجودا مستقلا، و لكن الوجود واحد يمكن تصوير ذلك بالبحر و موجاته فهناك موجات متلاطمة و متتالية و متكثرة هذه الموجات هي عين ذات البحر، و لتوضيح الصورة تصوروا أي واحد منا وهو جالس يستطيع أن يخلق في ذهنه مجموعة خيالات مثلا يخلق رجل بلباس معين و له خصوصيات هو يعينها!، تأملّ في هذا الرجل الذي خلقته في ذهنك، هو رجل موجود و تستطيع أن تخلق غيره لكن كل هذه الموجودات في صقع ذهنك! وجودها بوجودك و ليس لها وجودات مستقلة، نعم تقول الرجل الأول ذهب، أنت تجعله يذهب من خيالك، الرجل الثاني يطير و الثالث يموت، مجوع هؤلاء الرجال ليسوا إلا شأنك و ذاتك و تفرعات ذاتك من حيث أنها فيها قابلية الخلاقية و الإيجاد و الإبداع. نعم! أنت إبداعك محصور في عالم الخيال و القدرة على خلق هذه الصورة الذهنية ولكن الله جل و علا قدرته الإيجادية تتسع هذا العالم الموجود. بناء على هذا التصور سوف لن تكون هناك اثنينية في عالم الوجود و سيكون هناك الله جل و علا و مخلوقاته و هي ليست إلا شأن من شؤونه وتجلي من تجلياته جل و علا. هذا المعنى قد يرسم في تصور البعض أنه لايوجد إلا الله جل و علا، نعم في أصل الوجود و التقرر الذاتي القيومي هو لله جل و علا فهو الحي القيوم، القيوم بمعنى أنه قائم بذاته مقوّم لغيره.

ولكن أنتم لا تتوهمون أن قدرة الله في الخلق كقدرتي وقدرتك في الخلق بمعنى أنها لا تقرر شيء في الخارج!، أنا و أنت من حيث أننا موجودات لنا تقرر خارجي و آثار خارجية بل أن من معجزات الله جل و علا أن يخلق مخلوقاً قائماً في وجوده بذاته متحرك و لذلك عندما يقولون أن عالم الإمكان محتاج في وجوده لله كذلك محتاج في بقائه لله جل وعلا لا كما يقول المتكلمون أن

الله أوجد العالم كالمقاول الذي أوجد بناء معيناً ثم لو مات المقاول فإن البناء يبقى!!، إنه يبقى لأن المقاول لم يوجده بل أوجد هيئة في مادة و المادة قائمة بذاتها قبل الصانع!، بخلاف الله جل و علا في إيجاد أصل المادة و الشيء و من هنا فبقاء الشيء و قيمومته بوجود الله جل وعلا.

إذا فهمنا أن هذا العالم ليس إلا شأن من شؤون الله يعني أن الله جل و علا عندما يُوجِد و يفيض و يضفي على أي ماهية وجوداً فليس بمعنى أنه يعطيها الوجود بشكل مستقل عن وجوده بل إن وجود هذا الشيء إنما هو مدد إلهي مستمر ، في كل آن هو يحتاج الى مدد، بمجرد ان يُعرض الله جل و علا عن هذا الوجود يتلاشى، كما أنك عندما تغفل عن المخيلة التي في ذهنك فإنها تتلاشى و تنتهي، أنت لا تحتاج الى فعل و مؤونة لكي تزيل هذا الشخص الذي رسمته في خيالك، هذا الذي رسمته له هيئة، لباس و قدرات معينة، لكنّ زواله يتحقق بمجرد إعراضك عنه، كل هذا الوجود متقوِّم بالله جل و علا و يحتاج في كل آن الى مدد إلهي ليبقى، و بمجرد أن يُعرض الله جل و علا عن هذا الوجود فإنه ينتهي الى الإندثار و اللاشيئية و الى العدم المحض لأنه في كل آن و لحظة بلحظة يحتاج الى عطاء و مدد إلهيين أشبه ما يكون بهذا المصباح مع الكهرباء فإنها في كل آن تحتاج إلى مدد من الكهرباء لكي تضيء و في الآن الأول من انقطاع الكهرباء سوف تنقطع الإضاءة و لكن هذا بالنسبة للإضاءة و ليس بالنسبة لأصل المصباح أما بالنسبة لوجودي و وجودك فإنه يدور مدار المدد الإلهي و العطاء الإلهي، و من هنا نفهم طبيعة لغة القرآن عندما يتكلم عن مجريات الأمور و أحداثها و التوفيق بين القدر من جهة و المشيئة من جهة ثانية في أنه لاتوجد اثنينية بين إرادتك أنت أيها الانسان و القدر الذي هو المشيئة الإلهية إذ أنت في كل وجودك إنما هو مدد من الله جل و علا أنت إذا كان أصل وجودك متوقف على أن يعطيك الله المدد في الوجود

فكيف تكون إرادتك التي هي شأن من شؤونك مستقلة عن إرادة الله جل و علا فستكون إرادتك هي أيضا في هذا الامتداد.

أثر التوحيد الخالِص على الانسان

١/ الإحساس بالفقر لله عز و جلّ

إذا وقفنا عند حدود هذه الصورة و التصور بإمكاننا أن نتصورها ثم ننشغل عنها و ننساها لكن إذا بنى الانسان حقيقة مشاعره و أحاسيسه على أساس فهمه لهذا المعنى فإن هذا يترتب عليه الإحساس الواقعي بالفقر والحاجة لله جل و علا و من هنا نفهم الآية ﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾[١] يقال أنه عندما أشهدهم على أنفسهم ليس هناك تتالي زمني بمعنى أنه ليس هذا الحادث كان في زمان سابق غير هذا الزمان الذي نوجد فيه، و إنما تتالي رتبي بمعنى هذا الذي جرى نحن نعيشه اليوم و أننا مفطورون في أعماقنا على إدراك أن وجودنا هذا فقير محض و أنه متقوّم بالتعلق بالله جل و علا و هذا ما يسمى بالفقر الذاتي. شعور الانسان بأنه في ذاته لا يمتلك شيء، هذا الشعور في عمق الانسان يحتاج إلى أن يتبلور على مستوى الفكرة و التصور لكي يعيش الإنسان فيه حالة من الأنس و التعلق و الارتباط لأنه يدرك أنه في ذاته و في وجوده و تقرره كله إنما هو بمقدار ما يتعلق بالقدرة الإلهية و بمقدار ما يستمد ارتباطه بالله جل و علا، و من هنا يكون أشد ألوان الألم و أمضّها يوم القيامة هو شعور الانسان أنه مقطوع عن الله جل و علا[٢]، عندما

---

[١] الأعراف/ ١٧٢.

[٢] في دعاء كميل: (فهبني يا إلهي و سيدي و مولاي و ربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك وهبني يا إلهي صبرت على حرنارك فكيف أصبرعن النظر إلى كرامتك...).

يحشر الانسان تقول الآيات القرآنية ﴿وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾[1] هذا يُوجِد حالة من الألم و اليأس و هذا معنى أنه ﴿نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾[2] بمعنى أنها تثار من أعماقك!! تارة يأتي الألم من الخارج و يصيب الجلد و اللحم و يغور الى العظم هذا أبعد مانتصوره من الألم أما إذا كان ألم من الأعماق، هو ذات النار، شعورك أنك منقطع عن مصدر وجودك، شعورك أنك لا تستمد رحمة و لاعطفاً و لا وجوداً، هذا المعنى قد يعيشه الانسان في الدنيا و لكن يُخالطه تشويش ظاهري بمعنى أنه يغفل عن ارتباطه بالله و ينقطع عن الله جل و علا و لكن يربك هذا الإحساس الداخلي بالانشغال بالملذات و زينة الحياة الدنيا و لكن بمجرد أن تتجرد الروح عن هذا التلذذ المادي والبدني سوف يجد حالة من الانقطاع و الضنَّك و الألم و المرض لا يستطيع أن يتحملها موجود أو يصبر عليها!! الله أوجده و أمدَّه و دبَّره.

٢/ورضوانٌ من الله أكبر

ثم من جهة ثانية في المقابل تماماً كم هو مقدار سعادة الانسان و أنسه، لعله أشرنا عن طبيعة الآخرة و الملذات في الجنة و طبيعة المُلك في الجنة و أنه عندما يقال في بعض الروايات يعطى العامل العمل الفلاني، مثلاً من أحيا ليلة فإن له من الأجر كذا و كذا و يعطى مئة ألف مدينة، هذا العطاء ليس كما يملك الملاّك مدنهم في هذا المكان و إنما يملكه كما يملك الموجود بدنه، كيف تستطيع أنت أن تهيمن على هذا البدن هيمة تكوينية ذاتية، إن بدنك هو أنت و تشعر أن أنت هو بدنك و في الحقيقة أنت ليس بدنك بل أنت روحك و لكن لهيمنة الروح على هذا البدن لا تشعر أنها تحتاج الى مؤونة في تصريفه و تدبيره، نفس الحالة عندما تملّك مدينة هناك أيضاً،

---

[1] آل عمران/٧٧.

[2] الهمزة/ ٦-٧.

تقول الروايات أن المؤمن يوم القيامة يرى الطير في السماء فيشتهيه فإذا هو مشوي بين يديه فيرى الحجرة فيشتهي أن تتحول إلى جارية فإذا بها تتحول و تنبت الجواري من الأرض لهم فيها ما يشاؤون يعني كل بمشيئتك تملك الأشياء و هذا الملك و الهيمنة و الربوبية هو تمام حالة الأنس و السعادة و الشعور بالهيمنة و الملك و هذا معنى أن الانسان هو نفحة ربانية يعني أن الانسان كما تعبر الروايات جوهرة كنهها الربوبية[1] الانسان جوهرة حقيقتها و ذاتها حالة من الربوبية إلا أنها الجوهر الثاني من الربوبية. تمام أنسه و سعادته و استقراره هو بارتباطه بموجده الذي يستمد منه الوجود و العطاء. إذا أدرك الانسان حقيقة هذا الوجود و منطقيته، شعر بحالة من الأنس و هذا معنى السعادة تكون في الدارين و السعيد سعيد في بطن أمّه و الشقي شقي في بطن أمّه[2]، يمكن أن تفسّر بهذا التفسير أن الشقي يكون في بنائه في ذاته و تركيبته سعيد أو شقي ، لا بمعنى الجبر الذي قد يتبادر لأذهان البعض و هذا من المسائل العقائدية المعقَّدة ، لمعالجة هذا الاستظهار نقول أنّ الانسان إما أن يكون في طينته و معدنه مرتبط بالله جل و علا[3] و يعيش مع الله و يشعر بهذا التوحد و الارتباط و العلقة الوثيقة بينه و بين الله عز و جل فهو سعيد يعيش حالة من الأنس و الاستقرار، يقول أمير المؤمنين عليه السلام لا يفرق عندي كانوا العرب معي أو ضدي؛ يعني تصور أن شخص لا يفرق عنده الحال أن الأمة الانسانية كلها تكون معه أو ضده، لأنه يعيش أحاسيسه و مشاعره في الارتباط بالقوة المطلقة و في الإحساس بالعلاقة مع الله جل و علا.

---

[1] ميزان الحكمة، باب العبادة، ٢٤٩٠.

[2] عوالي اللآلي، ج١، ١٦، ح١٩.

[3] (الناس معادن كمعادن الذهب و الفضّة)

٣/ إدراك الانسان لأتمّ أشكال القُرب الإلهي

تتميماً لآية الإشهاد و الذر أن الله جل و علا لما سأل المخلوقات و أشهدها على نفسه إنما رأوا في أنفسهم و ذواتهم تمام الفقر فقالوا بلى، هذا المطلب لا يخلو من إبهام و لكن أشير له بشكل سريع: هل يستطيع الموجود المحدود أن يعرف ذات الله جل و علا ، لعل السائد على الألسن أنكم تفكروا في فعل الله و لا تتفكروا في ذات لله لأنه لا سبيل للانسان أن يدرك الذات الإلهية، هذا المعنى أيضاً على إطلاقه ليس بصحيح و إنما الصحيح أن أي موجود بمقدار ما فيه من الإدراك إنما يدرك أنه هو موجود و أنه معلول بمعنى أنه ليس هو الذي أوجد نفسه و بمقدار ما يدرك أنه معلول يدرك أنه نتيجة العلة؛ لأن المعلول ليس إلا شأن من شؤون العلّة و ليس إلا نتيجة من نتائجها، أي هناك سنخية و علاقة ذاتية بين العلّة و المعلول، فكل معلول ليس إلا جزء من جزئيات العلة، و هذا المعنى نحسّه بشكل مباشر، ماهي علة الرطوبة: الماء أو الخشب أو النار؟ علة الرطوبة هو الماء ، ماهو الماء؟ هو الرطوبة مكثفة، ماهي الرطوبة؟ هي ماء خفيف. ماهي علة الحرارة؟ هي النار، ماهي الحرارة؟ هي نار مخففة، ماهي النار؟ هي حرارة مكثفة قوية، تجدون أن المعلولات كلها متجانسة تمام التجانس مع عللها، أيضاً هذا الموجود عندما يتجرد و يقرب الى النورانية فإنه ليس إلا معلول من معلولات الله جل وعلا، إذا أدرك هذا الموجود ذاته فإنه بحدود إدراكه لذاته يدرك شأن من شؤون مُوجِده جل و علا. فهو يدرك شأن الله و لكن طبعا باعتبار محدودية ظرفه الوجودي و أن الموجود لا يستطيع إدراك ماهو خارج دائرة وجوده فإنه يدرك من ربه بمقدار ما يدرك كمّ هو معلول لربّه و هذا الإدراك هو الذي يثير في النفس حالة من الأنس (إلهي بك عرفتك و أنت دللتني عليك)[1] لذلك

---

[1] دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام.

استطعت أن أصل اليك و كما ورد في ذيل آية الإشهاد عن زرارة قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى قال ثبتت المعرفة في قلوبهم و نسوا الموقف سيذكرونه يوما ما و لو لا ذلك لم يدر أحد من خالقه و لا من رازقه[1]؛ يعني لولا أن الله أشهد الموجودات على نفسه لما عرفوه و لما كان لهم سبيل الى معرفته لو أنه جل و علا خلق الموجودات و تركها و أغفلها لانقطعت عنه و لذابت و تلاشت و ماعادت عندها القدرة على معرفة الله جل و علا.

٤/ قيّوميّة الله في الإدراك الانساني

أيضا من نتائج تصورنا لوحدة الوجود ننتهي إلى أن لله جل وعلا له قيومية في أصل الإيجاد و له قيومية في أصل البناء المعرفي عند الانسان يعني أن الانسان في منظومته المعرفية و في معرفته بكل شيء مبتني على المدد الإلهي له، يعني كما أن وجود الانسان متقوّم بالله جل و علا فإن معرفة الانسان بالأشياء متقوّمة بالله جل و علا، و كما أن الله أعطاه الوجود كذلك مدَّهُ بالقدرة على أن يعرف، لأن أساس المعرفة هو إدراك الانسان أنه هو موجود في هذا الوجود ثم إذا أدرك وجوده فإنه يدرك أن هذا الوجود الذي أحسه بكل ذاته لا يجتمع مع عدمه يعني أنني موجود ولا يمكن أن يكون هذا الموجود ليس موجود، هذا الذي أدركه موجود و لا أتصور أنه يجتمع مع عدمه يعني لا يجتمع الوجود و العدم معاً، هذه هي أم القضايا و أساس المعرفة الانسانية و من خلالها يبني الانسان معرفته بكل شيء، و لولا هذا الشعور و الإدراك الوجداني لأصبح الانسان لا يعلم شيئا؛ لأن هذه المعرفة

---

[1] المحاسن،٢٤٢.

هي أساس المعارف البشرية حتى المعارف الجزئية المصيرية اليوم كما يقولون نحن أينما نشك في شيء نرجع إلى أساسها المعرفي ثم إذا شككنا في الأساس نرجع إلى أساسه و هكذا حتى نرجع إلى أساس القضايا و هي إمتناع التناقض فهذه القضية هي منطلق كل البناء المعرفي و هذه القضية أيضا ليست إلا مدداً إلهياً في نفس النفحة الربانية، الله جل و علا عندما أوجد الانسان تفضل عليه في أصل الوجود، و تفضل عليه بأنه يدرك و أنه ينطوي على أساس المعرفة و منطلق المعرفة و من هنا بنيت المنظومة المعرفية كما بنيت الشجرة الوارِفة مبنيّة على أساس واقعي و تكويني، و من هنا يتضح فساد ما قد يقال أنه يجتمع النقيضان في الآخرة أو على القمر ،هذا يخالف الواقع التكويني واستحالة اجتماع النقيضين ليس أمراً افتراضياً ، هذا القائل كان يفترض أن الله خلق العالم ثم كما نفعل نحن في الأجهزة الإلكترونية و نبرمج هذا الجهاز، فنبرمج هذا الجهاز كل يوم على برنامج، الخلق ليس من هذا القبيل بل كما يعبر ابن سينا الله جل و علا خلق المشمشمة و هي مشمشة لا أنه خلق المشمشة ثم مشمشها يعني ليس أن الله أوجد المشمشمة ثم أعطاها روح المشمشِيّة و إنما خلقها مُتمشمِشة أينما وُجِدت هي كذلك.

لغة القرآن (١): أسلوب القرآن في التعبير عن الواقع

احتواء القرآن على خصوصيات الواقع

هناك مزاج قرآني عام يحكم القرآن الكريم عند استعراضه للمطالب، فالقرآن جاء ليوضح مجموعة من الرؤى و المفاهيم و القيم و لكن بطريقة منطقية بمعنى أنه يتكلم عن الواقع بكل ما للواقع من خصائص. قد لا يستطيع الانسان أن يدرك الواقع على ما هو عليه من كل الجهات و من كل الحيثيات و لكن القرآن الكريم لا يتجاوز حيثية واقعية إلا ويشير إليها و من النماذج على ذلك هذا المعنى في قوله عز و جل ﴿وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾[1] بمعنى أنه عندما أخذ الرسول ﷺ مقداراً من تراب الأرض و رماه صوب وجوه الكفار فإن هذا الرمي هو منسوب للرسول و في نفس الوقت هو منسوب الى الله عز وجل فما رميت حين رميت فالنفي مقيد بوقت الفعل ،و هذا قد يظهر منه شيء من التناقض ﴿وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾ هذا التركيب في المعاني خاص بالقرآن الكريم وهو كثير ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُم﴾ مع أن الظاهر في الخارج هو أن الذي قتل هم المؤمنون، هم الذين قتلوا المشركين.

القرآن يحكي خصوصيات الواقع بدقّة ووضوح

و لعله أيضا في نفس هذا السياق ماقد أشرنا إليه في ما سبق من أن القرآن عندما يتكلم عن نزول الملائكة و دعمهم للمؤمنين، هؤلاء الملائكة ماذا يصنعون؟ يقاتلون الكفار؟ أولاً: مانزل من الملائكة أعداد أكبر من عدد

---

[1] الأنفال/ ١٧.

المشركين كلهم فلو أن كل اثنين من الملائكة قتلوا مشركا لأبادوهم!، ثانياً: ملك واحد يكفي لتنفيذ الأمر الإلهي في قتل المشركين، ثالثاُ: أنه لا يوجد أحد من المشركين في بدر لا يعلم من هو الذي قتله، يقال أن علياً قد قتل نصف كفار بدر و أن بقية المسلمين قتلوا النصف و التاريخ يذكر مَن قتل مَن!، فالملائكة ماذا صنعوا؟ عمل الملائكة ليس هو عمل في عرض عمل المؤمنين بل إن عملهم في طول عمل المؤمنين و معنى أن الله جل و علا هو الذي رمى و ليس الرسول ﷺ بمعنى أن الفعل المنسوب الى الرسول ﷺ، في حين أنه منسوب الى الرسول هو ليس من الرسول بل هو من الله. إذا لاحظنا الفعل الصادر الذي هو الرمي نجد الآية القرآنية تؤكد و تقول أنه حين أنه من الرسول فهو من الله على نحو الطولية لا على نحو العرضية بمعنى أن العلل و الأسباب في المراتب السابقة ليست في عرض الأسباب اللاحقة، ماذا أقصد بالعرضية؟ يعني أنه عندما نقول أنه قد كُتب في اللوح المحفوظ و في القدر أنك سوف تقوم بالعمل الفلاني، إذن قد تشك أنه إذا كان مكتوبا في اللوح المحفوظ أنك سوف تصلي هذه الصلاة و أنك سوف تقع في هذا الجرم، أين الإرادة و أين الاختيار؟ يقال أن اختيار الانسان لايقع في عرض القدر بحيث إذا وجدت علة القدر لانحتاج الى علة الاختيار و إنما الاختيار في طول القدر و مصداق من مصاديقه، بمعنى أنها هي القدر بالنتيجة أي أن ما تقدّره أنت و ماتقرره و ماتفعله إنما صدر منك لأنه مرتبط بالقدر لا على نحو أن القدر هو علة لفعلك بحيث يكون فعلك هو معلول للقدر فتكون أنت مجردا عن الإرادة. القرآن الكريم عندما يريد أن يعرض الأحداث الخارجية يعرضها بهذا اللون من التمازج و التداخل بين القدر و الإرادة الإلهية من جهة وبين إرادتك و فعلك بحيث يكون الفعل الخارجي هو منك و هو ليس منك بل هو من الله. هناك بيت شعر للعرفاء يقولون عندما يتداخل أمران متمازجان بحيث أنه عندما تتأمل لاتدرك هل هو من الله أو من الانسان يقولون:

رقّ الزجاج ورقة الخمرُ فتشاكلا فتشابه الأمرُ

فكأنما خمرٌ ولا قدح و كأنما قدحٌ ولا خمرُ

عندما يكون هناك إناء ضريف شفاف وناعم و تصب فيه ماء رقراق أيضاً شفاف لاتوجد فيه أي شوائب، عندما تلاحظهما لا تدري هل هذا إناء فارغ أو أنه ماء جامد بدون إناء يتشاكلان و يتشابهان فتتداخل القضية، هنا نفس الكلام ﴿وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾[1]، بحيث يُنفى الفعل عن الرسول ﷺ و يُسند إليه في الوقت نفسه!، و ما قتلتموهم و لكن الله قتلهم، هذا المعنى كثير و مكرر و من هنا أشرنا إليه في آية الكهف في مسألة الإرادة و أنه بمقدار ما في الفاعل من شفافية و تجرد يكشف عن جريان إرادة الله فينسب الفعل لله جل و علا و بمقدار ما يصدر الفعل من خبث الذات فإنه ينسب للذات، و بمقدار مافيه من الجهتين فهو ينسب للجهتين، و قد أشارت الروايات لهذا المعنى فجاء أن الله جل و علا في كل شيء و ليس بعيداً عن شيء و أنه داخل في الأشياء لا على نحو أنه ممازج لها و لكن بمعنى أنه لا يفارق شيئاً و أن الله جل و علا في كل هذا العالم، و أن هذا العالم متقوّم بالله، مثل الماء في الإناء حيث أنّ وجوده متقوّم بهذا الإناء هذا التشبيه!، هو مقرّب من جهة إلا أنه يسبب تشويش من جهات عديدة.

كيف طوّع القرآن اللغة العربية لإيصال المعاني بدقة؟

المعاني العالية التي يريد أن يشير اليها القرآن و التي ينظر فيها إلى أدق المعاني التي توافق الواقع التكويني لا يعدو عنه شعرة، يريد أن يعبّر عن كل هذه المعاني لأمة تفتقر الى الثقافة و يستعصي عليها استيعاب كثير من هذه الأمور، كيف تُطوّع اللغة العربية -هذه الآلة الاعتبارية- لتكون طريقاً لإيصال

[1] الأنفال/١٧.

المعاني الدقيقة الظريفة التي منها ما فهمناه و منها مالم نفهمه بعد!، كما ورد في بعض الروايات أنه إنما جاءت سورة التوحيد و أوائل سورة الحديد لأقوام سوف يأتون في آخر الزمان يؤمنون على سواد في بياض يعني سوف يأتي في آخر الزمان أناس متعمقون يصلون إلى المقاصد و المعاني القرآنية الدقيقة التي لم تبلُغها عقول البشرية بعد، و لم تستطع الانسانية الى اليوم الإحاطة بمعانيها و مقاصدها. هذه المعاني و هذه المقاصد و النكات الشريفة الدقيقة العميقة، كيف تستطيع هذه الآلة التي كان يستخدمها العرب في شؤونهم الظاهرية -يعني العرب الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ- عندما يتحدثون و يتكلمون، فماذا يعرفون من الأشياء لكي يستعملوا هذه اللغة فيها، مثلاً عندما يريد العربي أن يتكلم عن شيء مؤلم، هو ماذا يعرف من الألم؟ يعرف من الألم –عافاكم الله- المغص في البطن، الصداع في الرأس لكنه متى عاش ألم الشوق و الحب؟! ألم التطلُّع الى المعاني السامية؟! إنه لا يفهم هذا النوع من الآلام لذلك لا يضع اسما لهذا النوع من الألم، لايضع اسماً إلا لما يعرفه من أنواع الألم، يقال أن العربي وضع عدة أسماء للأسد و عدة أسماء للبعير و عدة أسماء للفرس و لكنه لم يضع لفظة مرتبطة بالقانون و لا جملة قانونية؛ لأنه لا يعيش دائرة القانون و مفاهيمه فيقال أن اللغة العربية فقيرة في جهة التقنين لأنه ليس من هَمّ العربي و من شأنه أن يضع ألفاظا و صِيَغاً للمعاني التقنينية التي تحتاج الى ذهنية تقنينية. من هنا نريد اليوم بعد أن أشرنا بشكل مجمل إلى طبيعة الدقة القرآنية على مستوى المعاني و دقتها على مستوى المنطق و منطقية القرآن و التزامه بأدق الأمور المنطقية و أنه لايتكلم إلا عن أمور مطابقة للواقع، أن نتحدث عن بعض الأمور بشكل أكثر تفصيلاً...

أسلوب القرآن التعبيري

نريد أن نشير الى بعض الظواهر المرتبطة بأسلوب القرآن التعبيري و بلغة القرآن الكريم، و هذا الذي أوقع بعض العلماء في وهم أن القرآن الكريم لا يمكن أن يفهم. إن القرآن إذا أراد أن يتحدث عن معاني عالية و مطالب دقيقة تحتاج الى دقة عقلية و العرب لم يعتادوا هذا الأسلوب في التعابير و تفتقر لغتهم لهذه المعاني، ثم هناك مسألة أخرى، هناك بيت شعر مضمونه: كيف نخيط لجمال الله جل و علا ثوبا من ثمانية و عشرين حرفا، يعني اللغة العربية التي هي ثمانية و عشرين حرف آبية و غير قادرة على أن نخيط منها ثوب لله جل و علا يليق بجماله. من إعجاز القرآن الكريم أنه استعمل هذه اللغة بنحو استطاع أن يحكي هذه المعاني و لكن بطريقة من اللطف و الرقة بحيث لم تستوحش منها قلوب العرب و الناس، لو أن القرآن الكريم أراد أن يتكلم عن هذه المعاني بلغة أكاديمية و باصطلاحات خاصة لأصبحت ألفاظاً مبهمة غير واضحة، غير ذات دلالة و من هنا استخدم القرآن عدة أساليب فنيَّة اختص بها القرآن الكريم، منها مثلا البطن و الظهر و قد سمعتم بهذه الرواية أن للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة أبطن[1]؛ هناك فن آخر أو طريقة أخرى منهج لغوي خاص بالقرآن الكريم و هو المحكم و المتشابه كما أن للقرآن ظهور و بطون للقرآن أيضا إحكام و تشابه، و كذلك منهج ثالث استعمله القرآن و هو الأمثال و ضرب الأمثال، و هناك منهج رابع و هو عملية النسخ، ليس المراد من النسخ هو ما قد يتبادر الى الذهن من أنه تأتي أحكام شرعية ثم تتلوها أحكام شرعية أخرى ترفع الحكم الشرعي الأولي؛ لأن هذا المعنى من النسخ يأبى أن يسند لله جل و علا، الله لا يتصور في شأنه أن

[1] عوالي اللآلي، ج٤، ١٥٩، ح١٠٧.

يأتي بحكم ثم بعد فترة يلغي الحكم السابق و يأتي بحكم لاحق، و إنما هناك معنى آخر للنسخ قد نشير اليها.

هنا سنذكر ظاهرتين، كما قلنا أننا على المستوى المنطقي نحتاج الى مقدمات تعيننا على فهم طبيعة الكون لكي نكون في سقف النظرة المنطقية للقرآن في التعامل مع الكون و في الإشارة إلى هذا الكون؛ لأن القرآن الكريم يتكلم عن الكون تماماً كما هو على ما هو عليه، فيجب أن نفهم طبيعة الكون لكي نفهم لغة القرآن المنطقية، كما يجب أن نفهم طبيعة أسلوب القرآن الكريم في إيصاله للمعاني، مثلا كظاهرة نريد أن نقف عندها بشيء من التفصيل و هي مسألة البطن و الظهر ، هنا هذه المسألة غير مسألة الأحرف السبعة و أن القرآن نزل على حروف سبعة، هذه مسألة أخرى ناقشها السيد الخوئي رضوان الله تعالى عليه مناقشة لطيفة و مفصلة.

١/ الظهور و البطون

مسألة الظهور و البطون باختصار أشبه ما تكون بمجموعة دوائر متداخلة يعني هناك دائرة كبيرة تمثل معنى وسيع كبير وفي وسطها هناك دائرة أصغر و في وسط هذه الدائرة الأصغر هناك دائرة أصغر و أصغر و أصغر إلى سبعين بطنا كما تعبر الروايات. أنت عندما تشير الى الدائرة الأصغر، بالتبع أنت تشير الى مجموع الدوائر. القرآن الكريم يتكلم بهذا الشكل يشير في مقصده النهائي الى الدائرة الأدق و لكن يدع مجالا لمجموع الدوائر أن تظهر من كلامه، العلامة الطباطبائي ﷺ يورد نموذجاً لهذا المعنى يوضح كيف أن القرآن الكريم في بعض الأحيان يشير إلى معاني و يتكلم هو بالأساس عن المعاني الدقيقة التي هي بطن بطن البطن، ولكن العقول متفاوتة في الإستيعاب و من هنا ما يفهمه البسيط الأولي موافق لما يفهمه المتقدم في الفهم و هذا أيضا موافق لما يفهمه من هو متقدم عليه، ليس

مافهمه الأول خطأ و مافهمه الأخير صحيح، و إنما مافهمه الأخير أصح مما فهمه الأول و الجميع فَهِم فهماً صحيحاً كنموذج لهذا المعنى يقول العلامة الطباطبائي ﷺ أن من الأمور التي حاربها القرآن الكريم عبادة الأصنام و الشرك و الأوثان، فيقول الله عز و جل ﴿وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾[1] هذا المعنى واضح و ظاهر إن القران يدعو لعبادة الله دون عبادة غيره من الأوثان، أوضح نموذج يفهمه العقل العربي و الفهم البدائي هو أن مايخالف عبادة الله هو عبادة الأوثان، أن تسجد للصنم هذا شرك فيقول الله عز و جل: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ﴾[2] و لكن القرآن الكريم يدعو الانسان إلى أن يفهم أن الشرك بالله ليس فقط هو السجود للصنم بل أن هناك ما هو أبعد غاية من ذلك فيقول الله عز و جل: ﴿أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾[3] ، العرب ما كانوا يعبدون الشيطان بعنوان أنه شيطان بل كانوا يسجدون للأصنام، و لكن القرآن يقول لهم ليس الشرك بالله أن تسجد للصنم، كل ما يكون فيه انقياد للشيطان و اتباع له هو لون من ألوان الشرك، هنا خطا بهم خطوة أدق في ألوان الشرك بالله عز و جل من مجرد السجود للصنم، ثم بعد ذلك يشير لهم أن الانقياد للهوى و إطاعة الهوى أيضا هو لون من ألوان الشرك بالله عز و جل فيقول: ﴿أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾[4]؛ فجعل الهوى إلهاً مع أن هذا قد لا يفهمه العربي في بدو قوله عز و جل: ﴿وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾؛ العربي لا يفهم أن (اتباع الهوى) نوع من أنواع الشرك، و لم يكتف القرآن بهذا المستوى من أشكال التنزيه لله

---

[1] النساء/ ٣٦.

[2] الحج/ ٣٠.

[3] يس/ ٦٠.

[4] الفرقان/ ٤٣.

من الشرك، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول أن أي التفات أو نظر أو تعويل على غير الله فهو لون من ألوان الشرك أيضاً، يقول الله عز و جل: ﴿وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ ﴾[1]؛ يجعل من الغفلة عن الله و الإقبال إلى غير الله عز و جل لون من ألوان الشرك المؤدي الى جهنم، من لا يتوجه الى الله و لا يقبل عليه سبحانه و يعتمد و يتوجه الى غير الله فهو مشرك، و لذلك قال ﷺ: (وإنه ليران على قلبي وإني لاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة)[2] ؛ يعني مجرد أن أغفل عن التوجه الصافي الخالص إلى الله جل و علا فهذا شرك يستغفر منه الرسول ﷺ، حتى هذا المقدار من الغفلة يعتبر حالة من الشرك بالله و الرسول يجلّ عن أن يأتيه أي شائبة الغفلة، و إنما يخاف الرسول عن أن يُران على قلبه أو أن يصاب قلبه بحالة من الغفلة عن الله التي هي من أشكال الشرك عند الرسول ﷺ و عند القرآن، فالقرآن الكريم عندما يتكلم عن الشرك أول ما يبدو للذهن البدوي البسيط يتصور أن الشرك إنما هو السجود للأصنام، بينما القرآن أخذ ذهن الانسان الى أن الشرك ليس فقط السجود للصنم و إنما يمتد إلى إطاعة الشيطان أي نوع من أنواع الطاعة، بل أكثر من ذلك اتباع الهوى لون من ألوان الشرك، بل أن تُقبِل و تلتفِت إلى غير الله فهو حالة من الشرك، فالقرآن عندما يتكلم عن الشرك يتكلم عنه في هذا المعنى الدقيق للشرك، فالسجود للأصنام نوع من أنواع الشرك صحيح و حقيقة و ليست مسألة مجازية و لكنه المعنى الظاهر الذي باطنه هو أن تتوجه الى غير الله عز و جل هذا في آخر البطون، حتى اعتمادك على القوة إن

---

[1] الأعراف/ ١٧٩.

[2] بحارالأنوار، ج١٧، ٤٤.

كان لك غلبة و مُكنة و مال فإنّ إطمئنانك لها هو لون من ألوان الشرك و الاعتماد على غير الله عز و جل هو الغفلة عن الله عز و جل الذي يجعلك أشدّ ضلالاً كما تعبر الآية ﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾[1]، الغفلة عن الله حالة من حالات الشرك، هذا نموذج من نماذج اللغة القرآنية.

٢/ التحاكم و النسخ

عندما يتكلم القرآن الكريم عن تلك المعاني السامية قد يستعصي على الذهن العامي أن يستوعب كل تلك الدلالات، و لكن القرآن يطرح بعضها في بعض، و بعضها مُستوعب لبعض. و من هنا نفهم معنى التحاكم في الآيات القرآنية بمعنى أن الأخلاق متحاكمة و المفاهيم متحاكمة و بعضها حاكم على بعض.

و هذا معنى النسخ أيضا بمعنى أنه كنموذج لمعنى النسخ الكرم هو أن تعطي من نفسك للآخرين، و لكن إذا كان العطاء في بعض الموارد يؤدي الى مفسدة للمعطى و يؤدي إلى هيمنة المعطَى على المعطِي فهنا تأتي قيمة أخرى حاكمة على قيمة الكرم كالحكمة فيقال يعطي و لكن يعطي بحكمة و لا يعطي بسفه، الذي يعطي بسفه هو من يعطي من يستحق و من لا يستحق، يعطي من يفيده العطاء و من لا يفيده، مثل الأم عندما تدلل ابنها هي رؤومة و رؤوفة و رحيمة و تعطي مقدار من العاطفة للابن و لكن هذا بإطلاقه ليس حكمة وليس اعتدالا بل يجب أن نحكّم العقل على العاطفة، هي حاكمة على دائرة العاطفة و نضيق دائرة العاطفة و ليس هذا تقبيحا للعاطفة و إنما تحكيماً لجريان العاطفة، إنّ حكومة العقل على العاطفة يسمى نسخ، فإذا

---

[1] الأعراف/ ١٧٩.

جاء حكم العقل ارتفع موضوع حكم العاطفة من رأس، و القرآن بهذا المعنى متناسخ يعني أن بعضه ينسخ بعضاً و هذا معنى التثني، القرآن مثاني بمعنى أنه ينثني بعضه على بعض فيخلق من خلال هذا اللون من التثني و رجوع بعضه الى بعض صورة متكاملة لا صور متضاربة متفككة، الله جل و علا و القرآن كله حكمة و كله عطاء و مَنّ و فضل و لكن هذه المعاني كلها متجانسة متلائمة بعضها يحكم على بعض لتخلق دوائر متكاملة متجانسة متناسقة.

٣/ الأمثال

من الظواهر في لغة القرآن التي أريد أن أشير إليها إشارة سريعة هي لغة الأمثال، فأسهل شيء لإيصال المعاني هو من خلال النموذج و المصداق الخارجي فيضطر القرآن الكريم في كثير من الأحيان أن يصب القضية و المفاهيم الكلية في قصص و مفاهيم نموذجية حيّة متحركة، و من هنا نلاحظ أن الآيات القرآنية تشير الى هذه الخصوصية القرآنية؛ يقول الله عز و جل ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾[١] نلاحظ أن هذه صفة عامة في القرآن الكريم، تقول الآيات الأخرى: ﴿وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ﴾[٢] يعني القرآن الكريم عبارة عن أمثال بل كله أمثال حتى ما يظهر أنه يصف الأمور الخارجية كما هو الحال في وصف القرآن الكريم للجنة مثلا فإن القرآن الكريم يقول: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[٣] هو لا يتكلم عن واقع الجنة، فتلك الخارجية سوف تباشرونها -إن شاء الله- و تدركون معناها و حقيقتها عندما تدركونها يوم القيامة و هذا لاتستطيع الأذهان المحكومة بالزمان و المكان أن تستوعب ماذا يعني الجنة و نعيمها!

---

[١] النور/ ٣٥.

[٢] العنكبوت/ ٤٣.

[٣] الرعد/ ٣٥.

ذكرنا أن الروايات تقول أن في كل لون من أطعمة الجنة يوجد فيها أطعمة كل الفواكه، أنت عندما تأكل فاكهةً هل تتطعم بطعم فاكهةٍ أخرى؟ لا، بل تأكل كل فاكهة برائحتها و طعمها و شكلها. فالموزة التي في الجنة مثلاً تنطوي على مجموع نتائج و طعم الفواكه بأجمعها، الروايات تقول أن التلذذ بالفواكه في الجنة ليس من الفم و الأنف و النظر بل بمجموع الأحاسيس! عندما تتلذذ بلذة فواكه الجنة ستشعر بلذة الأصوات المطربة و الألوان الجميلة و اللمس الناعم و التذوق بجميع ألوان التذوقات، هذا كيف نتصوره و نستوعبه؟!. من هنا القرآن الكريم يستعصي عليه إيصال هذه المعاني بتفاصيلها فيقول لك أن كل مانقوله لك إنما هو من نحو الأمثال و فعلاً على مستوى المصداق إنما يورد لك مصاديق خارجية، تقول آية قرآنية: ﴿وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرا﴾[1] الدنيا بكل ما فيها إنما هو شبيه بهذه الدورة السريعة التي نراها في كل سنة، مطر ينزل من السماء و إذا بالعشب يخضَرّ و إذا بظاهر الأرض كلها تنمو! لاحظوا القرآن في سرعة انتقاله و تصويره الحياة الدنيا كماء ليس المثل هو العشب بل الماء، خلاصة النعمة الإلهية هي الماء، نعم! لها ظواهر تمتع الانسان و هي العشب و لكن هذا العشب، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ﴾، هذا الاختلاط ما أن ظهر و بدا فيه لون من الخضرة يثير في النفس حالة من الأنس و السرور و هذا نجده في مشاعرنا عندما نقبل على مساحة أرضية مترامية الأطراف تصبغها الخضرة و تعلوها الأعشاب ، فإنه بشكل عفوي و ذاتي و طبيعي تجد أن هناك ارتياح في النفس و سرور لأنه يثير في النفس شعور الأمل، و لذلك أثر، خروج الشمس عند الشروق و أثرها و انبعاثها هذه أمور كلها مرتبطة بدلالات و إيحاءات في

[1] الكهف/ ٤٥.

أعماق النفس و ليست مجرد صور خالصة، خلاصة الكلام أن هذا الماء الذي ينزل من السماء ﴿أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ﴾ ففجأة ﴿فَأَصْبَحَ هَشيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ﴾، يعني هذا كأنما كان في المساء، فأصبح يعني في الصباح لم تمض مدة أو يوم و إنما حالة سريعة هذا اللون من الأمل الذي تستثيره هذه المياه النازلة من الأرض يجب أن لا يطول بنا فننسى مصير هذا الأمل و أنه سوف يصبح هشيما ﴿تَذْرُوهُ الرِّياحُ﴾ يعني تأخذه الرياح إلى حيث شاءت ﴿وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرا﴾[1] يعني أن هذا من قدرة الله و هيمنته.

خلاصة الكلام أن القرآن الكريم يحاول أن يعالج مشاعر النفس و تصوراتها من خلال مجموعة طرق و أساليب لإيصال هذه المعاني اللطيفة الدقيقة إلى فطرة الانسان و روحه و يزرعها زراعة هادئة دقيقة يحييها في أعماق الانسان و يثير في نفس الانسان المقاصد و المعاني من غير توسل بمصطلحات فلسفية و من غير إيلاج الانسان و الذهن العربي البسيط في تعقيدات فلسفية و هذا من أدلّ و ألطف وجوه الإعجاز في القرآن الكريم!، أنه كيف استطاع أن يجعل من هذه المعاني الدقيقة العميقة الظريفة، جعلها تسري في نفس الانسان مهما كان بدوياً بسيطاً لأنه يدخلها من خلال أحاسيسه و مشاعره و فطرته بشكل مباشر.

نرجو من الله سبحانه و تعالى أن نقرأ القرآن قراءة واعية و نتلذذ به حقيقةً بحيث نجد لذة هذه المعاني و التصورات في أعماقنا و الحمد لله رب العالمين و صلى الله على محمد و آل بيته الطيبين الطاهرين.

---

[1] الكهف/ ٤٥.

لغة القرآن (٢): ظاهرة المُحكم و المتشابه في القرآن

﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْويلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾[١]

هذه الآيات الشريفات التي تتحدث عن طبيعة و ظاهرة عامة في القرآن الكريم هي محور بحث و كلام طويل و عريض عند دُرّاس القرآن الكريم إذ أن هذه الآية تتكلم عن ثلاثة مصطلحات متفاعلة متداخلة يؤثر بعضها في بعض، يقول الله (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ) فالقرآن يصف بعض آياته بالإحكام ثم يقول (وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) إذن القرآن الكريم ينطوي على آيات محكمات موصوفة بأنها (أمّ الكتاب) و أخرى متشابهة، ثم تشير الى معنى وهو علم التأويل يقول سبحانه: (وَ ما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلاَّ اللَّهُ) و قد وقع العلماء في خلاف حول هذه الواو في قوله (وَ ما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ) إذ يفترض البعض أن الواو عاطفة مفردة على مفردة، و الراسخون معطوفة على اسم الجلالة الذي هو فاعل (يعلم) بمعنى أنهم أيضاً يعلمون التأويل فتكون القراءة: (و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم) (يقولون آمنا به) يعني هم يعلمون التأويل كما أن الله عالم بالتأويل و يقولون أنهم آمنوا به، و البعض يقول أن الواو هي واو استئنافية و الواو الاستئنافية هي واوٌ عاطفة إلا أنها تعطف جملة على جملة لا أنها تعطف اسم على اسم فيكون معنى الكلام أنه (و ما يعلم تأويله إلا الله)، انتهت الجملة (و الراسخون في العلم

[١] آل عمران/ ٧.

يقولون آمنا به) لا أنهم يعلمون، بل هنا الكلام مستقل، و الواو استئنافية (و الراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عندنا)، و هذه الجملة معطوفة على (أن الله يعلم تأويله)، يعني أن الله يعلم التأويل و الراسخون يسلّمون بالقرآن لا أنهم يعلمون بالتأويل هذا بدو النظرة العامة لهذه الآية، ونحن سنحاول أن نتوقّف عند المحاور الثلاثة التي تكلمت عنها الآية و هي الإحكام و التشابه و التأويل.

تتبُّع استعمال القرآن للفظيّ المحكَم و المتشابه

نريد أن نتتبع هذه الألفاظ في موارد استخدام القرآن الكريم، نلاحظ أن هذه الآية خلافا لما هو وارد أيضا في القرآن الكريم من وصف القرآن كله بالإحكام، إذ أن القرآن الكريم يصف جميع آياته بالمحكمات يقول الله عز وجل (كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ)[1] و ظاهر هنا أن الوصف بالإحكام و صف عام يأتي على كل الآيات القرآنية! هو وصف للآيات الذي يُؤوَّل بالنتيجة الى وصف مجموع الكتاب. كما أن هناك آيات أخرى تصف الآيات القرآنية و الكتاب بأنه متشابه فيقول الله تعالى:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2]، إذن هناك آيات قرآنية تصف عموم القرآن بأنه محكم و هناك آيات قرآنية تصف عموم القرآن بأنه متشابه و هنا هذه الآية فصلت فقالت أن بعض الآيات ﴿مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهات﴾ إذن هناك فرق بين الإحكام في الآيات عموماً عن الإحكام في هذا المورد، كما أن هناك فرق بين المتشابهات الذي وصف به مجموع القرآن عن التشابه في هذا المورد. ولعل

---

[1] هود/ ١.

[2] الزمر/ ٢٣.

ثالثة المعاني في هذا المورد و هي مسألة التأويل، ماذا يعني التأويل و ماعلاقته بالتفسير؟ هل أن التأويل هو تفسيرٌ أو أنه أمرٌ آخر؟

تطوّر معاني التأويل في الثقافة الدينية و أثره على فهم المحكم و المتشابِه

يقول الذين تتبعوا لفظة التأويل في الحركة الثقافية الدينية أنه في بدء العالم الإسلامي كان لفظ التأويل يساوق و يساوي لفظ التفسير يعني تأويل القرآن يساوي تفسير القرآن و لذلك بعض العلماء في العصور الأولى كانوا يسمون كتبهم التفسيرية تأويل القرآن يعني تفسيره، بل أنه هو هذا الجاري على الألسن إلى عصرنا هذا تقريباً و الغالب في ألسن المفسرين أن تأويل القرآن هو التفسير و لكن هذه اللفظة أخذت تتلون بألوان خاصة و من خلال بيانها سيتضح لنا مسألة الإحكام و التشابه سواء على مستوى عموم الوصف أو على مستوى الخصوص.

لفظة التأويل بداية كانت تساوي لفظة التفسير إلا أنها أخذت خصائص معينة أصبحت لفظة التفسير تطلق على عموم توضيح المقاصد الإلهية من ظواهر الكلام، من الواضح أن الألفاظ اللغوية أعم من النص القرآني ، والدلالة اللغوية إما أن تكون ظاهرة أو نص أو مجمل ومتشابه، فالظاهر يحتمل أكثر من معنى لكنه يقوى أحدها على الآخر، و النص هو الذي لا يحتمل إلا معنى واحد، المجمل هو الذي له أكثر من احتمال و ليس له قوة ترجّح أحدها.

التفسير هو تبيين ظواهر الآيات القرآنية يعني ربما يكون في دلالة الآيات أكثر من احتمال، فيقوم المفسر بإبراز أحد الوجوه بخصوصه و يبرز مقصود تلك الألفاظ لأي من هذه المعاني، أما النص فلايحتاج الى تفسير و لكن باعتبار أن أغلب الآيات القرآنية تحتاج الى تبيين و توضيح و يستعان في ذلك

بأسباب النزول و أصول الألفاظ العربية و مجموعة أدوات تُستعمَل في توضيح الظواهر القرآنية، التأويل شبيه بالتفسير إلا أن بعض العلماء انتهوا إلى أن التفسير يصدق على الآيات المحكمة و التأويل جعلوه مترتبط بخصوص الآيات المتشابهة بناء على تفسير أن المحكم هو النص و الظاهر، أما المتشابه فهو المُجمل، فالمتشابه يحتاج الى تأويل لا يساوي التفسير مطلقا بل هو نوع خاص من التفسير و هو تفسير الآيات المتشابهة التي تحتاج الى حمل على خلاف الظاهر، فمثلاً الآيات القرآنية التي تتكلم عن الأوصاف الإلهية التي يُستظهر منها التجسيم و التحديد بالزمان و المكان كقيدين لله عز و جل! فتأويلها هو أخذ هذه الآيات وحملها على خلاف الظاهر ، يسمى هذا تأويلاً و هذا هو السائد في ألسن المفسِّرين أن تأويل الآية يعني كان لها ظاهر معين مثلاً (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْديهِم)[1] يأتي المؤوِّل يقول يد الله يعني قدرة الله و عظمته، هذا يسمونه تأويل وهو تشخيص المعنى متجاوزاً ظاهر الكلام إلى بعض مستلزماته و لوازمه، فإذن التأويل هنا أخذ معنى خاص من التفسير، وبناء على فهمهم لمصطلح التأويل بينوا مصطلحي الإحكام و التشابه في القرآن الكريم.

وجعلوا المحكم يعني المعاني الظاهرة والصريحة و المتشابه يعني غير الواضح في معناه، و التفسير يتم تبيين المعاني الظاهرة و إبراز المرادات الإلهية من عموم الآيات و التأويل مخصوص بالآيات التي يظهر منها خلاف الإلتزامات العقائدية الأولية. بل أن لفظة التأويل أخذت طابعاً سلبياً في مرحلة من مراحل تطور هذا اللفظ و أصبح معنى التأويل حمل الكلام على خلاف الظاهر و خلاف العقائد الدينية أيضاً و لذلك يقال (لا تُؤوِّل الكلام) بمعنى أنه لا تحمل الكلام على خلاف مرادات المتكلم و تحمله على وفق

[1] الفتح/ ١٠.

تصوراتك الشخصية و تُميل الدليل إلى هواك بدل أن توضِّح !. و هذا المعنى فيه لون من التَّوهين، عندما يقال لشخص (أنت مؤوِّل!) لا يساوي (أنت مفسِّر)، لأن المفسر عمله العلمي سليم بينما المُؤوِّل هو الذي يعوج الدليل و يميله على وفق مزاجه. ولكن كل هذا الكلام غير صحيح في الحقيقة. و ليس موافقاً لظواهر القرآن الكريم بل لا فائدة فيه، لماذا يعبِّر القرآن الكريم - الذي هو نور و هداية و رشاد- عن معاني بنوع من الإحكام و يعبر عن معانٍ أخرى بنوع من التشابه؟ ما الغرض أن تأتي آيات متشابهة بحيث تتعطل و تتوقف في فهمها و وضوحها على لون من ألوان التأويل؟ لماذا لا تعبر الآيات القرآنية عن الأهداف و المقاصد بشكل محكم و مباشر؟ ثم بناءً على هذا، كيف نوفِّق بين وصف القرآن لبعض آياته بالإحكام و آيات أخرى بالتشابه فيقسِّم الآيات إلى محكم و متشابه و يصف في مورد آخر كل القرآن محكم ثم يعود و يصف كل الآيات أنها متشابهة فيحصل هناك نوع من التهافت.

التأويل في الاستعمال القرآني

١/ التأويل هو انكشاف الواقع الذي تكلم عنه القرآن

لكن إذا رجعنا إلى الألفاظ القرآنية و الاستعمال القرآني للفظة التأويل نجد أنها لا تعيش عالم دلالات الألفاظ أصلا بل تعيش العلاقة بين عالم اللفظ و عالم الواقع و التكوين، لاحظوا هذه الموارد التي استعمل القرآن فيها لفظة التأويل، قال عز و جل: ﴿وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْويلَهُ﴾[١] يعني هل ينتظرون إلا بروز الواقع الذي يتكلم عنه القرآن الكريم و الدليل على أنه هذا هو المراد قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتي تَأْويلُهُ يَقُولُ الَّذينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا

[١] الأعراف/ ٥٢-٥٣.

بِالْحَق﴾[1] يوم يأتي التأويل تظهر الأمور على حقائقها و يُقرّ بها حتى الذين كفروا قبل أن يأتي التأويل، فإذا جاء التأويل لا مَفرّ لأحد أن يُنكِر حقائق القرآن لأنها سوف تكون ظاهرة و بيّنة و واقعية و جليَّة، فالتأويل هو الواقع الذي يحكي عنه القرآن الكريم، كأنما هو يوم القيامة حيث تظهر الحقائق عَياناً، فيظهر قبح الجُرم و جمال الواجبات الشرعية و المستحبات التي كان يقول الكفرة عنها أن توجه المؤمنين توجها فاسداً! هناك يتبين أنّ الفاسد هو توجههم.

٢/ التأويل هو التحقُّق الخارجي في هذا العالم

آية أخرى لها نفس هذا المعنى في سورة يوسف: ﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدينَ﴾[2]، ثم في الآية ١٠٠ ﴿وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْويلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾[3] الرؤيا التي رآها يوسف أين تأويلها؟ تأويلها هو الواقع الذي تحقق في الخارج.

التأويل ليس لفظ يفسر لفظ و إنما هو الواقع الذي تحقق في الخارج الذي يبين معنى اللفظ و يبين ما وقع من رؤيا أو من ألفاظ؛ بمعنى أنه تارة يكون التأويل للرؤيا كما في هذه الآية و أخرى يكون التأويل للألفاظ القرآنية كما هو في الآيات السابقة .

---

[1] الأعراف/ ٥٣.

[2] يوسف/ ٤.

[3] يوسف/ ١٠٠.

٣/ التأويل هو الآثار الخارجية للعمل و السلوك

بل أكثر من ذلك بعض الأحيان يكون التأويل هو نتيجة العمل و السلوك، بمعنى آثاره الواقعية الخارجية كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْويلاً﴾[١]؛ يعني أحسن مآلا و نتيجة و آثاراً، فتأويل عمل الناس هو آثاره الخارجية التي تتحقق بسبب حسن أفعالهم أو سوء أفعالهم.

العلاقة بين التأويل و التفسير

مجموع هذه الآيات يظهر منها أن التأويل ليس في عالم الألفاظ أصلاً و ليس قرين التفسير؛ بل التأويل هو الواقع الخارجي الذي يبين و يؤول إليه السابق سواء كان لفظاً أو مناماً أو سلوكاً عملياً، هذه الأمور لها مآل و نتاج و آثار تكوينية خارجية، التأويل الواقعي التكويني هو الذي يبين واقع معاني تلك المنامات أو الألفاظ كأن تقول لابنك مثلا ذاكر جيداً فإنك تسعد بعد سنين، ثم يُهمل و لايجِدّ ثم يقع في مشاكل عندما يكبُر، لا يجد وظيفة و لا يجد أسباب العيش السليم فتقول له هذا ما قصدته ذاك اليوم، يعني ما وقع اليوم هو نتيجة ذاك اليوم.

فالتفسير و التأويل كلاهما يُظهِران معنى سابق لكن التفسير هو توضيح اللفظ باللفظ و التأويل على مستوى إبانة المقاصد و الدلالات على مستوى الواقع و التكوين.

بناءً على هذا المعنى ماهو تأويل القرآن؟ هو ظاهر قوله عز و جل ﴿وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْويلَه﴾[٢] المعاني العامة التي تكلم عنها القرآن من أن هذا الوجود

---

[١] الإسراء/ ٣٥.

[٢] الأعراف/ ٥٢-٥٣.

تحت إدارة إلهية و أنه ليس باطلاً و لاعبثاً، و أن له مستقبلاً و أن هناك حساباً و عقاباً و جنة و نار و آثار للأعمال التي تقومون بها، كل هذه المعاني الآن فعلاً تتحقق و لكن ظهورها و تأويلها و بيانها يأتي في وقت آخر و يُبَيَّن.

تعدُّد اصطلاح المُحكم و المتشابه في الاستعمال القرآني

قلنا أن الإحكام و التشابه نوعين: هناك إحكام يقابله تشابه و هو ماورد في الآية السابعة من سورة ال عمران حيث أنها قسمت الآيات الى محكم يقابلها متشابه، بينما آيات أخرى وصفت كل الآيات و القرآن محكم. فلدينا نوعان للإحكام لأن تلك المحكمات هنّ (أمُّ الكتاب) و يقابلها (أُخر) هذه الأخر (محكمات) في ضمن الوصف العام، و لكنها متشابهات في ضمن التقسيم المذكور في هذه الآية، كما أن التشابه في هذه الآية يختلف عن التشابه التي وصفت به كل الآيات القرآنية في مورد آخر. الإحكام و التشابه في هذه الآية بمعنى يختلف عن الإحكام التي وصفت به مجموع الآيات القرآنية في قوله عز و جل: (كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ) هنا الإحكام بمعنى أن كل الآيات القرآنية واضحة مترابطة متماسكة قوية لايوجد فيه تهافت أو اضطراب، و عادة الإحكام يقال للحبل عندما يربط بقوة، و هذا الوصف يتوافق و يجتمع مع الوصف الآخر و هو التشابه بمعنى أنها متلائمة متوافقة و أن هذه الآية تشبه الأخرى بمعنى أنها كلها تصُبّ في اتجاه واحد، أي كاتب و مفكر و متكلم مهما أُوتي من دقّة و إحكام فإنه أحياناً ينظر الى زاوية و أحيانا ينسى و ينظر من زاوية أخرى فتجد في كلامه بعض التهافت و التقاطع، بينما القرآن الكريم تجد أن كله يتثنى بعضه على بعض، بمعنى أن كل آية تؤكد معنى الآية السابقة، لا تصطدم بها بل تؤكد معناها فهو متشابه في الاتجاه و الدلالة و المَصبّ و الهدف، فالتشابه و الإحكام بهذين المعنيين واضحين جليّين و يتصف بها كل الآيات القرآنية فيقال عنها متشابهة و مُحكمَة. يبقى وصف الإحكام و التشابه في هذه

الآية فهو بحث طويل عريض و أكثر ما يثير المسألة أنه لماذا اتخذ القرآن الكريم هذا اللون من التعابير؟ ماذا يعني الإحكام و التشابه؟ و لماذا اتبع القرآن الكريم هذا الأسلوب و ما الغرض من ظاهرة الإحكام و التشابه في القرآن؟، يأتي إن شاء الله و الحمد لله رب العالمين و صلى الله على محمد و آل بيته الطيبين الطاهرين.

لغة القرآن (٣): الغرض من وجود المتشابهات في القرآن

إنارة

أ/ تاريخ التأويل في الثقافة الإسلامية

ذكرنا أن هذه المصطلحات المتداخلة متى ما فسرنا أحدها بتفسير معين فإنه ينعكس على المفردتين الثانيين و هذه المصطلحات الثلاثة تشكل أثافي يعني أنها عبارة عن أحجار ثلاثة يوضع عليها القدر لصناعة الطعام فيقولون ثلاثة أثافي يعني كل واحدة منها مقوِّم لهذا الجهاز الخاص للطبخ، فهذه الألفاظ الثلاثة التي هي المحكم و المتشابه و التأويل، و كل واحد من هذه الألفاظ سرى في تاريخ من التغير و التبدل عبر تغيرات ثقافية و تصورات و لعل أكثرها تطورا و تغيرا و تبدلا هو لفظة التأويل و من هنا استعرضنا بعض الكلام عنها بأكثر تفصيل و ذكرنا كيف أن هذا اللفظ كان في بداية الحركة الإسلامية و الثقافة الإسلامية كان صنو التفسير يعني أخ التفسير و يساوقه و يساويه فيقال أوّله بمعنى فسَّره، بل كما أشرنا أن الكتب القديمة التفسيرية سواء عند الطائفة السنية أو الشيعية كانوا يسمون كتبهم بتأويل القرآن و لم يكونوا يتجاوزون هذه اللفظة و لم تكن لها حيثية سلبية، ثم تطورت هذه اللفظة و خُصِّصت عن التفسير بأنها خصوص تفسير المتشابه فتفسير القرآن هو توضيح معانيه و مقاصده و تبيين مرادات ظواهره، أما التأويل فهو توضيح المتشابه منه خصوصاً . و من هنا أصبح التفسير أعم مطلقاً من التأويل يعني أن كل تأويل تفسير و ليس كل تفسير تأويل، بل أن

مدلول التأويل ذهب الى معنى أخص أيضا و هو خصوص حمل الكلام على خلاف ظاهره، و من هنا أخذ بعداً سلبياً، فأصبح يقال أن هذا يؤول الكلام و هذا اللفظ يستعمل الآن بهذا المعنى، فأصبح فيه شمّة التحريف ،أي كان المعنى الظاهر شيء و أنت جعلته شيئاً آخر. و من هنا لعله نفهم لماذا خصصت لفظة التأويل في مرحلة من مراحل الحركة الإسلامية بخصوص المتشابه، لأنهم جعلوا المتشابه ليس له ظاهر محدّد ، فأصبح التأويل بهذا مساوق للتحريف و حمل الكلام على خلاف ظاهره فأصبح فيه لون من ألوان الجرم و القبح، على خلاف التفسير، و من هنا ترك العامة هذا الاصطلاح. نعم! تمسك بهذا اللفظ طائفتان هما الشيعة و الصوفية لأنهم لم يسيروا بهذا اللفظ في هذا الاتجاه القبيح و هو التحريف، بل إنّ التأويل ليس من عالم التفسير في شيء من الأصل، و أن التفسير هو تبيين العلاقة بين اللفظ و المعنى بينما التأويل هو تبيين العلاقة بين المعنى و واقعه الخارجي التكويني.

ب/ مقاصد استعمال القرآن للتأويل

إن التأويل يرد في مورد المنامات و الأحلام كما ورد في قصة النبي يوسف و أن يوسف بعد أن ذكر في أول سورة يوسف ﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبيهِ يا أَبَتِ إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدينَ﴾ ثم في الآية رقم ١٠٠ تأتي بتأويل هذه الآية و التأويل ليس لفظا يشرح لفظا و إنما هو واقع خارجي هو مصداق لذلك الكلام، يقول الله عز و جل على لسان يوسف (وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْويلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبّي حَقًّا) [١] ليس تأويلاً لفظياً، هذا مورد من موارد المقصد القرآني، و موراد أخرى أشرنا إليها في الوزن الحسن و الاقتصاد الحسن ﴿ذلِكَ خَيْرٌ وَ

[١] يوسف/ ١٠٠.

أَحْسَنُ تَأْويلاً﴾[1] أي أن الحركة الاقتصادية الخارجية تنتهي بتأويل حسن، فالتأويل هو واقع خارجي تكويني يحكي عن سلوك و هذا السلوك له مآل و واقع، هذا القرآن كله له تأويل ﴿يَوْمَ يَأْتي تَأْويلُهُ يَقُولُ الَّذينَ نَسُوه﴾[2] فالتأويل ليس أموراً لفظية بل هو واقع تكويني خارجي يتقرر في الخارج و يتبين من خلاله المراد من المنام و الحق في الحركة الاقتصادية و المراد من الكليات المطروحة.

ج/ الراسخون في العلم و العلم بالتأويل

بناء على هذا سوف تتضح عندنا الاحتمالات في قوله عز و جل ﴿وَ ما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْم﴾ في أنه من الراسخون في العلم و هل يعلمون التأويل أو لا؟ قبل أن نجزم بشيء في هذا الصدد لنلاحظ العلاقة بين المفردة الثالثة و المفردتين الأوليتين و هما إحكام و تشابه، هذا الكلام هو ضغط لبحوث مفصلة للسيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷺ كتبها تلميذه السيد محمد باقر الحكيم في كتاب بعنوان (علوم القرآن) هذا البحث في علوم القرآن هو بحث معقد و آراء العلماء فيه كثيرة، و لفظ التأويل فيه ما يتجاوز ١٦ احتمال.

نعود للقول بأنه سيكون الخلاف في الواو، هل هي استئنافية أم عاطفة، إذا كانت استئنافية فهذا يعني أن مابعدها ليس مرتبط بما قبلها على مستوى الألفاظ وبناءاً عليه فالراسخون في العلم لا يعلمون التأويل ، و الواو الاستئنافية هي عاطفة لكنها تعطف جملة على جملة لا مفرد على مفرد، يعني هناك قضية مستقلة عن قضية سابقة لها، فالقضية الأولى أن الله عالم بالتأويل و القضية الثانية هي أن (الراسخون يقولون آمنا) فهم مسلِّمون و

---

[1] الإسراء/ ٣٥.

[2] الأعراف/ ٥٣.

منقادون لا أنهم عالمون بالتأويل، و إن قلنا أن الواو عاطفة فإنها تعطف لفظ (الراسخون) على لفظ اسم الجلالة و يكون المعنى أن (الراسخين في العلم يعلمون التأويل) كما هو الحال بالنسبة لله، و علمهم بالتأويل لايعني علمهم بالتفسير و إنما يعني علمهم بالواقع التكويني الذي سوف يتقرر في الخارج الذي هو مآل هذا الكلام العام، لأننا قلنا أن القرآن كله له مآل و تأويل و نهاية و واقع خارجي سوف يتبين في مستقبل الزمان، تظهر فيه مقاصد القرآن.

أيضا الحديث في التأويل ينعكس بطبيعة الحال على فهم اللفظين الآخرين و هما المحكم و المتشابه و أشرنا بدواً أن المحكم في الآية هو وصف لبعض الآيات القرآنية فالقرآن يقسِّم الآيات يقول ﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ﴾ من تبعيضيّة يقال أخذت من المال يعني بعضه لا كل المال (آياتٌ مُحْكَمات..) يعني بعضها محكم (وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) و بعض آخر متصف بالتشابه، هذا يقابله وصف في القرآن الكريم لمجموع القرآن أنه محكم حيث يقول (كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت) فهنا وصف الإحكام لمجموع القرآن و لكل الآيات، كما أن هناك وصفٌ للتشابه لمجموع القرآن، فالقرآن محكم كله و متشابه كله، و الإحكام و التشابه هناك بمعنى متقارب، فالإحكام بمعنى القوة و التمساك و الوضوح و البيان و عدم وجود اشكال فيه أما التشابه (كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِي) بمعنى أن آياته متقاربة منساقة في اتجاه واحد و مسلك واحد.

يبقى الإحكام و التشابه في آية آل عمران ، مامعناه؟ ثم يأتي إشكال يترتب عليه وهو أنه لماذا سلك القرآن الكريم هذا المسلك؟ لماذا لم يتكلم بإحكام؟ لماذا يثير المتشابهات؟

دور التأويل في تبرير استعمال المتشابهات في القرآن

لكي تكون هذه المتشابهات منسجمة مع الهدف العامّ للقرآن من الهداية و الإرشاد و إن اتخذها البعض فتنة كما يحكي القرآن الكريم (فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْويلِهِ) توجد آيات متشابهات تكون سببا لوقوع أهل الزيغ في هذا المسلك الخاطئ الذي يؤدي بهم الى البحث عن التأويل و الفتنة، إلا أن المعنى الصحيح للتأويل يفسّر لنا المحكم و المتشابه و يبرّر استعماله و أيضاً يبيّن عدم التعارض بين وصف كل القرآن أو بعضه بالإحكام أو التشابه. و سنبين ذلك من خلال مقدّمات:

١/ القرآن: فيض النور

يقول الله عز و جل: ﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾، و قال عزّ من قائل: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾[١]، يُستفاد من الآيات معانٍ كثيرة و أهمها أن مايصدر من الله جل و علا نور –كما قلنا سابقا أن القرآن الذي بأيدينا وهو عبارة عن مجموعة من الألفاظ مسجلة بين الدفتين- ينطوي على روح القرآن الذي في واقعه هو نور، و أشرنا في قوله: ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبينٌ﴾[٢]، إلى أن هناك نور في مرتبته العليا الذي (لا يمسه الا المطهرون) و قد تنزل على قلب الرسول ﷺ ثم تجلى في ضمن هذه الألفاظ ، بمعنى أن هناك نور واقعي تكويني وسوف تؤول الأمور الى بروز هذا النور و تحقّقه و سوف يأتي هذا اليوم الذي يكون فيه الملك لله، و في كل يوم و آن الملك لله، ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[٣] ماذا يعني مالك يوم الدين؟ أ ليس هو مالك هذا اليوم أيضا؟ فماذا

---

[١] الرعد/ ١٧.

[٢] المائدة/ ١٥.

[٣] الفاتحة/ ٤.

يعني أن نقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٢) الرَّحْمنِ الرَّحيمِ (٣) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[١]؟ هو مالك كل آن و كل زمان و إنما مالك يوم الدين يعني حيث ظهور الملك على أتمّه و أوضحه و أجلاه، و إلا الملك فهو في كل آن و في كل زمان لله جل و علا ويده مبسوطة لاتختلف حالها بالأمس عنها باليوم عنها غداً، و هو لازال كما كان كما تعبّر بعض النصوص، ما يكون يوم الدين إنما هو ظهور الملك، ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾[٢]، هذه الحياة الآخرة موجودة و متقررة في نفس وجود هذا الظاهر بل الروايات تقول الجنة و النار موجودتان في هذا الوجود و كل ماهناك أنّ الانسان نظره محدود.

نرجع الى أن القرآن الكريم في حقيقته نور و هذا الذي بأيدينا يجلي هذا النور و ماصدر عن الله جل و علا إنما هو هذا النور كما هو حال العطاء الإلهي، الله ينزل ماء صافياً نقياً طاهراً مطهراً، خالٍ من الشوائب ينزله من السماء و لكن في نزوله و في حال جريانه و في حال توزعه على الأودية و الأودية هي القلوب، الأرواح و النفوس و الوجودات التي تستقبل هذا العطاء الإلهي! هذه الوجودات تتفاوت في قدراتها على استيعاب هذا العطاء.

٢/ أثر العطاء الإلهي على نفس الانسان

إذا أدرك الانسان هذا المعنى فإنه يثير في النفس مقدار كبير من الرجاء و الأمل في الله عز و جل، و الله جل و علا كما يقول الفلاسفة **مطلق الفيض عطاؤه ليس له حدّ و آن**؛ بمعنى أن الله دائما يعطي و هو يترقب لحظة من لحظات إقبالك فيعطيك، هو يريد منّا الإقبال و الاستعداد، و إلا الله جل و علا في كل آن هو يرسل عطائاته و مِنَنه و فيضه و مدده و لكن نحن غافلون

---

[١] الفاتحة/ ٢-٤.

[٢] الروم/ ٧.

عن الله و معرضون و لسنا مستقبلين الجهة التي تصدر منها الأنوار الإلهية، فتفوتنا هذه العطاءات و إلا لو توجَّهنا لله في كل آن لعمَّتنا، و من هنا الانسان يجب أن يشعر أنه بمجرد أن يسأل الله فإن الله عز و جل يعطيه، و لذلك تقول الآية ﴿أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾[1] يعني بمجرد أن يدعوه و يُقبِل عليه و يستقبل الفيض الإلهي فإن الله جل و علا في مرتبة سابقة قد أعدَّ و هيّأَ المدد والعطاء و الفيض. العطاء الإلهي بالنسبة للمعاني القرآنية من هذا القبيل في أن القرآن نور من الأنوار الإلهية و عطاء من العطاءات الإلهية التي أُعطِيت للانسان -بل لكل هذا الوجود- صافيةً نقيةً خالية من أي شوائب الخلل و الإرباك و الزّبَد و إنما هذا الزبد يكدِّر المطر كما هو الحال في المياة التي تأتي من السماء، هي في حال سقوطها نقية صافية و كثيرة أيضا، كلما كان الوادي قادرا مستوعبا كبيرا مهيأ للزراعة فإن هذا الماء ينزل فيتحول الى خضرة و حياة و نماء و نتاج، ولكن بمقدار ما يكون هذا الوادي مليء بالوسخ و المواد الزائدة فإنه يحوّل هذا الماء الى ماء وسخ و تجد الزَّبد و الأوساخ جارية على وجه الماء في حين يبقى الماء الذي جاء به الله جل و علا من السماء صافيا في واقعه و مادته و قابليته للإحياء و إنما الواقع الأرضي المحدود و الذي تشوبه الشوائب هو الذي يسبب حالة من الشَّوب و الخلط في الماء.

[1] البقرة/ ١٨٦.

محدودية الانسان في استقبال العطاء هو سبب التشابه

القرآن الكريم أيضا من هذا القبيل فقد وصف نفسه بأنه كله محكم و متماثل و كله هداية و نور و رشاد، و إنما حالة التشابه تأتي من طبيعة الانسان و قدراته لأننا أشرنا في مرات سابقة أن القرآن الكريم يتكلم عن الواقع بكل ما للواقع من ملابسات. نلاحظ أنه يتكلم عن الشمس و القمر و الأفلاك على مستوى حركتها الفلكية، و لكن الانسانية هي التي عاشت ردحاً من الزمن و هي تتصور أن الكرة الأرضية هي مركز الوجود و هي مسطحة و أن الشمس تخرج من المشرق ثم تسقط في جهة المغرب ثم ترجع مرة أخرى!!... هذا التصور البدوي، القرآن ليس ملزماً في أن يخاطب الانسان بتصوراته البدائية عن واقع حركة الأفلاك بل يتكلم بلسانه الخاص عن الواقع الحقيقي المتقرر في محله يعني يتكلم عن الشمس و القمر و الأفلاك على ماهي عليه، هذا من حيث ظاهر الأفلاك، الأفلاك التي نراها من نجوم و كواكب ليس لها فقط هذه الحركة الظاهرية بل لها تأثير و أثر و انعكاس على واقع الحياة الأرضية، اليوم كُشفت بعض هذه الأمور، مثلاً لبعض النجوم أثر على الخصوبة عند بعض الحيوانات لأن الحيوانات ذات حركة دورية في الخصوبة و التزاوج ففي فصول معيّنة و في حركات و أوضاع نجومية خاصة تنعكس على واقع الحيوانات بل لها آثار و انعكاسات على تفاصيل حياة الانسان المدنية و الروحية أيضاً، و هذا المعنى أوقع بعض الأمم كما هو الحال في سالف الزمان كقوم إبراهيم أوقعهم في الشرك، فإنهم أصبحوا يخضعون لهذه الكواكب، يعبدونها و يسجدون لها و ينقادون لها لأنهم أدركوا بعض أنحاء هذا التأثير مع خفاء طبيعته و موقعيته. هذه المسألة يعني موقعية الكواكب و تأثيرها على الواقع الأرضي محل كلام كثير و يذكر في لسان الروايات قصة تشير الى طبيعة تأثير هذه الأفلاك التي يتكلم القرآن الكريم عنها و لكن الانسان غير قادر على استيعاب كل مداليل هذا المعنى و طبعا في

الروايات أيضاً جاء أن هذا علم قليله لا ينفع، و كثيره لا يحصل، و تقول الروايات أيضا المنجم كالكاهن و الكاهن كالساحر والساحر كالكافر[1]؛ يعني المنجم نهاية أمره إلى أن يقع في لون من ألوان الكفر، و للآن نحن نتكلم على مستوى الكواكب في مدى تأثير حركتها على واقع الانسان ثم يرتقي القرآن ليتكلم عن وقائع تكوينية كاللوح و القلم و العرش و الملائكة هذه معاني كلها يجب أن يتهيأ الانسان لاستيعابها و الإحاطة بها، هذه المعاني عندما يشير إليها القرآن، توقع الانسان الذي يعيش واقعا مادياً محدوداً في حال من الالتباس و الاشتباه!، و في موارد الاشتباه تُعالَج بالرجوع الى المُحكمات.

[1] بحارالأنوار، ج٣٣، ٣٤٧.

لغة القرآن (٤): علاقة الإحكام و التشابه بزَيْغ القلوب

﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْويلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾

معنى آخر للمحكم و المتشابه في القرآن الكريم

مر بنا في أن هذه الآية تتكلم عن عناصر ثلاثة و هي الإحكام و التشابه و التأويل، و قلنا أن للإحكام و التشابه هنا معنى مغايراً لما مر من آيات القرآن الكريم الأخرى. و تبين المراد بالتأويل. الآن نريد أن نتكلم عن المراد من الإحكام و التشابه في هذه الآية و هناك ثلاث مقدمات يجب أن نقف عليها ليتضح معنى الإحكام و التشابه و علاقتها بأصحاب القلوب الزائغة (يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْويلِهِ)

١/ الإحكام و التشابه يشيران إلى علاقة اللفظ بالمصداق الخارجي

النقطة الأولى التي يجب أن نبرزها هي أن الإحكام و التشابه هنا ليس من باب علاقة اللفظ بالمفهوم بل من باب علاقة اللفظ بالمصداق. يعني أننا عندما نتكلم نولّد ألفاظاً لها معاني ذهنية هي المفاهيم و لهذه المعاني مصاديق خارجية، إذن هناك ثلاث مراحل (لفظ ثم معنى ثم مصداق).

كلّ أمةٍ عندما تضع ألفاظ فإنها تقصد صور معيَّنة في الأذهان و هذا لا يخص المفردات بل حتى المركب، عندما تقول: (جاء علي و رأيت أسداً) غالبا المتكلِّم يُوجِد في ذهنه صُور و يريد أن يبرزها في ضمن ألفاظ، و لكن هذه الصُّور ليست هي المقصودة بالذات و إنما يراد منها ما خلف هذه الصُّور أي الواقع الذي تحكيه هذه الصّور، عندما تقول (جاء زيد) أنت لاتريد أن تُحدِث صورة ذهنية في ذهن المخاطَب و إن كان أولاً و بالذات هو لابد أن تحضر في ذهنه صورة ذهنية عندما تقول (جبل كبير) يحصل في ذهن المخاطَب صورة للجبل و صورة للكبير و لكن أنت تريد أن تُحدِث هذه الصورة لواقع خارجي يطابق هذه الصورة، أنت لاتريد فقط إحداث صور ذهنية فقط.

هذه الألفاظ أولاً و بالذات تُحدِث صور ذهنية و ثانياً و بالعرَض هذه الصور تحكي عن واقع خارجي و أنت ما تريده في الحقيقة هو ذلك الواقع الخارجي الذي يسمى مصداقاً.

الإحكام و التشابه هنا كما يؤكد العلماء ليس مشكلة بين اللفظ و معناه، و إنما غالباً هناك خلل بين المعنى الذي يرتسم في الذهن و المصداق الخارجي. هنا تأتي مرحلة الإحكام و التشابه، هناك مصطلح آخر و هو (النص و الظاهر و المجمل) يحكم علاقة اللفظ بمعناه فتارة تكون علاقة واضحة بيِّنة يسمى نص و أخرى يكون اللفظ في دلالته على معناه يحتمل عدة احتمالات لكن أحد الاحتمالات هي الأقوى فيسمى ظاهر، و ثالثة يكون اللفظ يحتمل أكثر من معنى بشكل متساوي فدلالته على معناه مجملة و هذا يُدرس في علم الأصول، ما هي علاقة اللفظ بالمعنى هل هي نص أو ظاهر أو مجمل. أما علاقة المعنى بالمصداق فهي تارة تكون محكمة و تارة متشابهة، نذكر بعض الأمثلة على العلاقة بين اللفظ و المعنى إما نص أو ظاهر أو مجمل، عندما تقول جاء زيد و الفرض أن مدلول كل من "جاء" و "زيد" محدد ومعين فهذا نص في المعنى، و هناك عبارة كثيراً ما تتكرر أن آيات القرآن

الكريم بعضها(قطعي الصدور ظنّي الدلالة) و السُنّة بعضها (قطعية الدلالة ظنّية الصدور). دلالة اللفظ على المعنى تارة تكون نص، و أخرى يوجد أكثر من احتمال و لكن هناك انسباق معيّن لأحد الاحتمالات، عندما يقول القرآن: ﴿وَ أَقيمُوا الصَّلاة﴾[1]، هذا ليس نصاً في وجوب الصلاة لأن فعل الأمر يحتمل فيه الاستحباب و بعض الأوامر هي من باب التعجيز ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[2] لا بمعنى أنه يجب عليكم الاتيان بل تعني أنكم لا تستطيعون الإتيان، و إن كان هي شبيهة بأقم الصلاة التي هي ظاهرة في الوجوب.

إذن العلاقة بين اللفظ و المعنى و المصداق علاقة ذات ثلاثة مراحل، هناك لفظ و معنى و مصداق للمعنى، هذا على مستوى المفرد، أما على مستوى الجملة، تأتي هنا أهمية الإحكام و التشابه، و هو أن بعض الأحيان يكون للكلام معنى واضح و مصداق واضح، كقولي لك (اسلك في حياتك اليومية مسلك الأدب) فهو تصوراً واضح و حتى مصداقاً في دائرةٍ مّا واضح. ولكن بعض الأحيان من حيث المعنى واضح، و لكن من حيث المصداق يكون فيه احتمالات و ابهام ففي بعض المواقف الخارجية يقع الاختلاف و الإبهام في تشخيص ما هو مقتضى الأدب؟، عندما يقول القرآن الكريم (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْديهِم) من حيث التصور معنى اليد واضح و الله واضح و فوق الواضح، لا يوجد مشكلة في اللفظ و في طبيعة دلالة اللفظ على المعنى، لكن المصداق ما هو؟ المصداق الظاهر الأوَّلي أن هناك يد جارحة تليق بعزّه و جلالِه حسب تعبير البعض هي فوق، يعني مُستعلِيَة على أيدي الآخرين، هذا ظاهرُ الكلام لكن المصداق الواقعي لهذا المعنى ليس واضحا و يوجد فيه احتمالات و شبهة. فهذا المعنى المتشابه يعالجه المعنى المحكم ، فمن الواضح أنه سبحانه لا

---

[1] البقرة/ ٤٣.

[2] البقرة/ ٢٣.

يشابهه شيء [ليس كمثله شئ][1]. أما الإحكام و التشابه فهي تحكُم علاقة اللفظ بمصداقه عن طريق المعنى، لا أنها بين اللفظ و معناها التي تحكمها النص أو الظهور أو الإجمال. و المعنى الذي يؤول له اللفظ كما مر علينا من لفظة التأويل سابقاً يعني ما هو المصداق الواقعي الخارجي لهذه الألفاظ، هذا أوّلاً.

٢/ النسبيّة في الأمور الخارجية

النقطة الثانية التي يجب أن نجعلها مقدمة لفهم طبيعة الإحكام و التشابه في القرآن الكريم هي مسألة النسبية في الأمور، كثير من الأمور نسبية، فهناك معاني كلية متواطئة و معاني كليَّة مشكِّكة. الأمور النسبية هي الأمور المشكِّكة، المشكِّك يعني أنه عندما نقول هذا أبيض و هذا أسود ألا يمكن أن يكون شيء لاهو أبيض كذاك البياض و لا هو أسود كذاك السواد بل هو أكثر سواداً و أقل بياضاً؟، فيتحصل أنه أبيض لكن أقل بياضاً من ذاك الأبيض هذه معاني تسمى تشكيكية قابلة للتفاوت، عندما أقول لك هذا خشب فالخشب واقع واحد و معنى واحد لا توجد قابلية للتفاوت في مستوى الخشب إذن هناك معاني متواطئة لا يوجد فيها حالة من التفاوت و هناك معاني مشككة. عندما أقول هذا كريم و ذاك كريم، هل بالضرورة أن يتساويا في الكرم؟ قد يكون أحدهما أشدّ كرماً من الآخر. و عندما أقول هذا بخيل و هذا أشدّ بُخلاً يكون بينهما تفاوتاً في البخل، الإحكام و التشابه أيضا من المعاني التشكيكية لا من المعاني المتواطئة بمعنى أن بعض الآيات متشابهة عند البعض و لكنها مُحكَمة عند البعض الآخر. فليس الإحكام و التشابه تقسيم رياضي، هذه الآيات متشابهة و تلك مُحكَمة! ليس كذلك، و إنما هناك

---

[1] الشورى / ١١

حالة من التداخل. بعض الآيات دلالتها على معناها واضح و مصداقها الخارجي واضح و بعض الآيات دلالتها على المعنى واضح و لكن مصداقها الخارجي فيه شيء من الإبهام عند البعض و واضحة عند آخرين، و بعض الآيات دلالتها على لفظها واضح و لكن مصداقها الخارجي مُبهَم عند الأكثر.

٣/ الفرق بين عمل المفسّر و الزائغة قلوبهم تجاه المتشابهات

و من هنا نفهم ماذا يعني الَّذينَ (فأمّا في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْه)؛ كما يشير بعض العلماء كالشهيد الصدر ﷺ أنه لو فسّرنا التشابه بما يرجع إلى دلالة اللفظ على معناه لكان عمل الذين في قلوبهم زيغ في المرحلة الأولى وهي تحديد المفهوم لا المرحلة الثانية وهي تحديد المصداق، و الحال أن المفسرين و الفقهاء كلهم يعملون و ينظرون في المرحلة الأولى يعني دلالة اللفظ على معناه و بعض الألفاظ ظاهرة في معناها و بعضها نصية، فالأخذ ببعض الظواهر و ترجيحها على غيرها، حيث يأخذ أحد المفسرين ببعض ظواهر الآية و يأخذ البعض الآخر ظواهر أخرى للآية، كما هو الحال في الفتاوى الشرعية حيث يأخذ الفقهاء نصوص و روايات و آيات، و أحد الفقهاء يقول أفهم من هذه الرواية حرمة الشيء الفلاني و آخر يقول يفهم الحِليَّة، و الأخذ بأحد الظواهر ليس زيغاً في القلب و ليس اتباعاً للمتشابه ابتغاء الفتنة و ابتغاء التأويل بل هو عمل عقلائي يسلكه العقلاء و هذا التفاوت مقبول و في ضمن الآلية البحثية العلمية المقبولة، أن تأخذ اللفظ و تتلمس المعنى المقصود، هذا لا يوجد فيه عيب، العيب هو أن تأخذ المعنى المحدد الواضح بعد أن نتفق على أن هذا اللفظ يدلّ على هذا المعنى و تجعل سبيلك لمصداقه الخارجي محلا للخلط و الاشتباه و التلاعب و هذا هو العنصر الثالث الذي يجب أن نضعه في فهم المحكم و المتشابه. و من خلاله نفهم ماذا يعني التأويل ، و نفهم ماذا يعني اتباع أهل الزيغ من مرضى القلوب،

اتباعهم لما تشابه منه ابتغاء الفتنة و مصداق هذا الكلام على مستوى الواقع الاجتماعي و التاريخي ملموس محسوس. ألم يتوسَّل معاوية بالآيات القرآنية في دعواه بأنه هو الذي وهبه الله الملك لأن القرآن يقول ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاء﴾[1] و هو مَلَك؛ إذن من وهب معاوية الملك؟ معاوية يقول مُلكَه من الله و أنه هبة ربانية يجب أن تكون مصونة و مقدسة! و هذا المعنى سُوِّق و فُعِّل في الواقع الاجتماعي الذي عاش فيه، أ لم يستعمل الطغاة و الجبابرة الآيات القرآنية لتبرير سلوكهم؟ هؤلاء هم أهل الزيغ الذين يأخذون الظواهر القرآنية و يطبقونها تطبيقا أعوجا طلبا للتأويل، التأويل أيضا هو مآل هذه الآيات القرآنية لأننا قلنا أن التأويل ليس من باب علاقة اللفظ بالمعنى بل هو من باب (علاقة الألفاظ) أو (السلوك الواقعي) أو حتى (المنامات) بمصاديقها الواقعية الخارجية. و من هنا نفهم أن القرآن الكريم عندما يتكلم عن المحكم و المتشابه يقصد بذلك المقاصد القرآنية في واقعها الخارجي، فواقع القرآن هو نظم حياة الناس و ترتيبها في واقع هذه الدنيا بنحو مستقيم و متساوي لينعكس على واقع الناس في مرتبتهم الأخروية بنحو من السعادة و النجاح، هذا هو مدخل أهل الزيغ ليجعلوا من القرآن طريقا و سببا لبلوغ أهوائهم و شهواتهم لينتهوا بالنتيجة بأنفسهم و الناس في مهاوي الردى.

معالجة المتشابهات بالمُحكمات

هنا معنى أبدأ فيه و هو أن علاقة المحكم بالمتشابه بناء على هذا الفهم أن الآيات المحكمة دلالتها على معانيها واضحة و معانيها في مصاديقها أيضا واضحة،أما المتشابه فعادةً العلماء يمثلون بهذا المثال القرآني ﴿وَ جاءَ رَبُّك﴾[2] أو ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم﴾ مما يُفهم منه التجسيم و مما قد يُتصوَّر بسببه أن

---

[1] آل عمران/ ٢٦.

[2] الفجر/ ٢٢.

الله جسم و محدود و محصور في زمان و في مكان. هذا المآل الذي ينتهي إليه ذاك اللفظ المشتبه، ولكننا نُحكِّم هذا المآل بقوله عز و جل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، هذه الآية معناها واضح و مصداقها واضح أن أي تشبيهٍ لله عز و جل بأي شيء فإنه منفي مرفوضٌ ممنوع منه.

من هنا سيتضح لدينا ظاهرة النسخ في القرآن و أنّ النسخ ليس هو إزالة مدلول آية كان ثابتاً و إنما هو حكومة آية على آية لتتفاعل مدلول الآيتين ليُنتِج معنىً جديد.

تفسير النسخ و البداء على ضوء علاقة الواقع الخارجي بالمحكم و المتشابه

النسخ

و هذا أيضاً هو معنى النسخ أي أنّ هناك حركة واقعية تكوينية تستلزم تغير بعض الشرائع، في مسألة النسخ هناك كلام كثير أنه هل في القرآن ناسخ و منسوخ ؟ و هناك مشكلتان أثيرتا حول أصل النسخ في القرآن الكريم. المشكلة الأولى تتعلق بأصل وقوع النسخ في القرآن الكريم، و المشكلة الثانية عن تفسير النسخ إن قلنا بوقوعه في القرآن، و قد ذُكرت عدّة آراء في أصل وقوع النسخ.

---

[1] الشورى/ ١١.

أقوال العلماء في أصل وقوع النسخ في القرآن

١/ استحالة النسخ

هناك من علماء القرن الرابع تقريبا من قال باستحالة النسخ لأنه يكشف عن جهل، يعني الناسخ هو رفع موضوع المنسوخ ، فلماذا نأتي بالآية المنسوخة ثم بعد ذلك ننسخها، لم يجد مبرر لذلك إلا أن يكون قد تبين لنا أن ما كان في المنسوخ خطأ واشتباه ؟

٢/ النسخ ممكن عقلاً لكنه لم يقع فعلاً

كما ذكر السيد الخوئيﷺ في كتابه البيان بأنه و إن كان لايوجد مانع عقلي من النسخ و إنما هناك عدم تحقق واقعي، لقد بحث السيد الخوئي في كل الآيات التي أُدعي أنها منسوخة و ناقشها و لم يقبل أن تكون أي واحدة منها منسوخة و لم يقبل بوقوع النسخ في أحكام الله عز و جل.

٣/ وقوع نوع من أنواع النسخ و هو نسخ الأحكام

هنا يجب أن نشير باختصار إلى أن النسخ عند علماء التفسير عدة أصناف و ليس صنفاً واحداً:

أنواع النسخ

١/ نسخ التلاوة

فهناك عند العامة ما يسمى بنسخ التلاوة، أي يفترضون أن هناك آيات قرآنية كانت موجودة ونسخت تلاوتها، يذكرون بعض الآيات التي جرت على لسان عمر بن الخطاب و يقولون أنها آيات نُسخت تلاوتها كقولهم (والشيخ و الشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) يقولون هذه آية قرآنية معروفة بآية الرجم كانت في عهد الرسول ﷺ ثم نسخت من حيث التلاوة و لكن حكمها باقٍ، يسمى نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

٢/ نسخ التلاوة و الحكم

عندهم العامة أيضاً نسخ التلاوة و الحكم معاً، وما كان كذلك فلا يجوز تلاوته تعبدًا، ولا العمل بما تضمنه من حكم. مثاله: ما رواه الإمام مسلم وغيره من حديث أم المؤمنين عائشة قالت: "كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يُقرأ من القرآن".

٣/ نسخ الأحكام

و هناك نسخ الأحكام و لعل أكثر علمائنا يقبلون بالنوع الأخير و هو بقاء الآيات القرآنية على تلاوتها و لكن أحكامها منسوخة. واقع النسخ و حقيقته في القرآن الكريم هو هذا، و لعله أشرنا في مرحلة سابقة إلى أن طبيعة الواقع الانساني يستلزم وجود لون من ألوان النسخ.

البداء و النسخ

هذا الكلام سيجرنا الى الحديث عن البداء، لأن مسألة النسخ تتعلق بمقام التشريع أما مسألة البداء فهي تتعلق بمقام التكوين، فالإشكال على النسخ يرتبط باعتقادنا و إيماننا بمسألة البداء، كيف أن الله جل و علا جاء بشريعة موسى عليه السلام ثم نسخها، ثم بشريعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، هل هناك تبدل على الله جل و علا أي أنه تبين له أن شريعة موسى عليه السلام ليست صالحة و أن شريعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أصلَح و أتمّ فحذفت تلك الشريعة، مع التغيرات الاجتماعية و تغيرات الواقع الاجتماعي تتطلب في بعض الظروف بعض الأحكام الشرعية وبعد وفاء تلك الأحكام الشرعية بحاجة الناس تأتي أحكام أخرى ، كل هذا الكلام طُرح و لكن لو آمنا بالنسخ في الدائرة الإسلامية و قلنا أنه في الأحكام الشرعية في القرآن الكريم هناك نسخ ألا يكشف النسخ عن جهل و عدم معرفة ثم كُشِفت هذه المعرفة؟ لماذا حُلل هذا الشيء ثم حرّم؟ قد يكون يلزم

منه تهمة الله جل و علا بالجهل!!، نفس هذا الكلام ينجر باعتبار الحديث عن مسألة العلم و الجهل بمسألة الواقع و التكوين و أنه كيف نتصور أن الله جل و علا يحصل عنده بداء لأن البداء هو نسخ في الواقع التكويني بمعنى أن الله جل و علا شاء أن يعيش فلان خمسين سنة ثم بدى لله فقصر عمره فأصبح عمره ثلاثين سنة أو بدى لله فأطال عمره فأصبح سبعين سنة يعني زاد عشرين سنة! هذا معنى البداء، أليس البداء ملازم لمسألة الجهل؟ يعني عندما كتب له خمسين عاماً كان جاهلا بالمصلحة التي اقتضت أن يعيش الى سبعين عام أو كان جاهلا بالمصلحة التي استوجبت أن يقصم عمره فيعيش ثلاثين عاما؟

حقيقة النسخ و البداء

ولكي نفهمهما يجب أن نلاحظ أمرين:

١/ النسبيّة و التداخل في القِيَم على مستوى الو اقع الخارجي

أولاً أن القِيَم في الخارج متداخلة متحاكمة و هذا أشرنا إليه في مرحلة سابقة يعني عندما نقول لشخص أنه يجب أن تكون عطوفاً مع أبنائك، يجب أن تتعامل معهم بنوع من العطف و اللين، هل هذه القيمة و الأدب في التربية مطلقة غير مقيدة لا يحدها شيء أو أنه يجب أن تكون ليّناً عطوفاً رقيقاً في ضمن الحكمة و حسن التربية؟ يجب أن تكون ليّناً عطوفاً مع أبنائك و لكن ليس إلى حد يصل الى حالة من التسيُّب – فإذا كان ابنك شقي، كثير الحركة- يجب أن تتعامل معه بمقدار من اللين و اللطف المحكوم بمقدار من الحكمة و التوازن بحيث تضطر في بعض الأحيان أن تمارس مع ابنك نوع من الضرب و الإيذاء كحد لسلوكه الخارجي، و هذا أيضا لا يحدّه إلا سلوك الولد، بمقدار ما يكون الولد مؤدب مطيع تتسع له دائرة اللطف و المحبة و بمقدار

ما يكون مشاغبا مشاكسا سوف تكون حالة الضغط و هذه الأمور متحاكمة مرنة نسبية، هذه جهة.

٢/ طبيعة تدبير الله للوجود يستلزم القول بالنسخ و البداء

جهة ثانية أن إدارة الله و تدبيره لهذا الوجود شبيهة لإدارتك و تربيتك لابنك! كيف أنك لا تزال في كل آن تتابعه و هو في حالة نمو و أنت تسوق هذا النمو في الاتجاه الصحيح. ابنك الان هذا الذي عمره ست سبع سنين هذا نابغة أو فاشل؟ لم يتقرر بعد، يمكن أن يكون نابغة أو فاشل حسب جِدّه و اجتهاده و تربيتك. أنت سعيد أو شقي؟ إلى الان ما انتهى الله يرزقنا و إياكم حسن الخاتمة. و لله المشيئة في كل آن تكون سعيداً أو شقيّاً، لا يزال هناك متسع من الوقت بإمكانك أنت اختيار طريق السعادة و الشقاء.

أختصر في مسألة البداء والتي تتعلق بمقام التكوين و مسألة النسخ والتي تتعلق بمقام التشريع واشير إلى هذا اللازم البيّن، وهو أن الذين يُشكِلون بمسألة البداء فإنه ينتج إغلاق باب النبوات و التربية و إغلاق باب الأخلاق، فلا معنى لا للنبوات و لا للإصلاح و لا للأخلاق و لا للدعاء و لا للعمل.

تقرير شُبهة إنكار البداء و جوابها

من المثالِب التي تُنسب للشيعة قولهم بالبداء، حيث كثيراً ما يُشنع على الشيعة ذهابهم إلى البداء وأن الشيعة يتهمون الله في علياء حكمته بالجهل لأن البداء معناه أنه لم يكن يعلم ثم علم، نقول لهم إذا كان الله لا يحدث عنده بداء فلماذا تعمل في السوق؟ أ لم يكتب الله لك رزقك من المال؟ ماذا ينفعك أن تذهب للعمل؟ الله سيرزقك مبلغاً معيناً محدداً سلفاً لماذا تذهب إلى السوق، سواء ذهبت أو لم تذهب فإن الله يعلم أنه سيرزقك هذا المبلغ المعين! ثم لماذا تدعو الله مثلا تدعوه بأن يطيل من عمرك، مامعنى هذا الدعاء؟ إذا كان الله كتب لك منذ الأزل أنك لك من العمر خمسين سنة فما معنى الدعاء؟

و لا معنى للعمل و الجد و الاجتهاد و الكدح، و لا معنى لإصلاح الآخرين، إذا أنت لم يتغير حالك فلن يتغير الجيل القادم فلا معنى للتربية و الإصلاح بل لا معنى للأخلاق لأنّ كل شيء محدد سلفاً، فتسقط قيم الأخلاق و المفاهيم الأخلاقية فإذا سقطت منظومة الأخلاق و التربية و العمل سوف يكون لا معنى للنبوات!، لماذا الله جل و علا يرسل نبياً إذا كان الصالح سوف يسلك مسلك الصالحين و الطالح سوف يسلك مسلك الطالحين؟!، فما معنى أن الله يجهد الأنبياء و الرسل و الصالحين و الدعاة الى الحق، كل هذا لا معنى له؛ لأن ما قُدِّر سيجري على ما قُدِّر عليه و لن يتغير.

البداء نافذة أمل

فمسألة البداء تعالج لنا كل هذه الأمور و تفتح لنا آفاق الأمل، مهما عصينا الله و مهما ورَّطنا أنفسنا في القاذورات فإننا لانزال نأمل بأن الله له في كل آن شأنا أن ينظر إلينا نظرة جديدة غدا، الله جل و علا يفتح لي باب التوبة و أغير مسلكي الذي سلكته، أما إذا قلت بعدم البداء سوف أُغلق أمامي أبواب الرجاء و الأمل و الصلاح و الدعاء و العمل، هذا الكلام الذي نقوله في البداء نقوله بالضبط في مسألة الناسخ و المنسوخ فإن لله جل و علا قيم و مفاهيم و معايير بعضها يحكم على بعض، و هي لاتزال في حالة تغير و تبدل أقصد على مستوى البداء لا على مستوى القيم فالقيم ثابتة غير متغيرة و غير متبدلة، إذن انتهينا من ظاهرة من الظواهر القرآنية و هي عبارة عن الناسخ و المنسوخ من جهة و الثلاثي المحكم و المتشابه و التأويل من جهة أخرى.

(ما عبد الله عزوجل بشيء مثل البداء)[1]، ففهم البداء هو أوسع أبواب عبادة الله جل و علا مابعث نبي إلا بالبداء، و هو في قبال ما قاله اليهود أن ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْديهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ﴾[2] و أن القول بعدم البداء يعني غلّ يد الله كما يعبر الإمام الصادق عليه السلام ليس يداه مغلولتان و أشار بيده هكذا، في تعبير منه إلى نوع من أنواع الغِلّ، بل الذين يقولون أن يد الله مغلولة و لا يستطيع أن يفعل شيء و أن الله خلق هذا الوجود ولم يعد يتصرف فيه حيث يعتقد اليهود أن الله خلق العالم في اسبوع بدأ يوم الأحد إلى يوم الجمعة ثم سبَتَ يوم السبت، يقولون الله اعتزل عن هذا العالم و لا دخل له فيه. طبعا هناك مرتبة من مراتب الوجود قد انتهت و لكن لاتزال مراتب أخرى في حالة تجدد و حركة و هذا يثير في نفس المؤمن الذي يفهم هذا المعنى و يعتقد بالبداء الكثير من آفاق الأمل و يفتح عليه باب سعة حلم الله جل و علا و تغيير الأمور.

ثم من لم يؤمن بالبداء يعيش حالة من الإرباك الفكري، و التعارض بين قوله و عمله وإلا فإنهم على المستوى العملي يعملون على أساس البداء، و هذا شبيه ما وقع فيه السفسطائيين الذين يقولون لايوجد في هذا العالم أي شيء وأي واقعية، و إنما كل ما في الأمر أوهام ليس لها حقيقة ، يقول لهم العلامة الطباطبائي إذا رأيت أسداً مقدم عليك و يريد أن يؤذيك فهل ستبقى واقفا و تقول هذا وهم؟ أو أنك تفر؟ هم يفرون ، فهم يتكلمون بألسنتهم غير ما يدركونه و يعملونه.

نفس العامة يقولون بعدم البداء و لكنهم يطلبون الرزق و يدعون و يربون أبناءهم و هذا ناتج من الإيمان بالبداء. و لذلك ذكرنا أن المعتقد به

---

[1] البحار، ج٤، ١٠٧.

[2] المائدة/ ٦٤.

فإنه ينعكس عليه نفسيا بحالة من الأمل بينما هم في بعض الأحيان لو تأملوا مبانيهم فإنها تدخلهم في حالة من اليأس و الاحباط و إن كان عندهم أن لله المشيئة في كل آن و أنه بمشيئته يخرج الناس من الظلمات و يدخلهم الى النور في أي آن و أنه ليست يد الله مغلولة فهم يعملون بما لا يُدركون.

هل البداء ينشأ من الجهل؟

البداء هو في واقع الحركة التكوينية وليس الكلام فيه عن علم الله ولا في شأن العبد. و الأمور التكوينية تمر بعدة مراحل و هي قابلة للتغيير و التبديل بمعنى أن الله جل و علا قد يكون من شأنه أن يعطي بعض الملائكة - و هذه أمور تكوينية- أن تأخذ من عمر فلان من الناس و هي في طريقها في الواقع التكويني في هذه الأرض تأتي هناك أوامر أخرى حاكمة على الأولى و هذا هو الرابط بين مسألة البداء من جهة و الناسخ و المنسوخ من جهة أخرى.

يقال أن عيسى رأى شابا حديث عهد بالزواج فقال عيسى للحواريين هذا الشاب لايبقى الى غدٍ، هنا نتكلم عن حيثية البداء و إلا فإنه تحوم حولها بعض التساؤلات[1] لاتهمّنا هنا فقط نستخدمها كشاهد، جاء الحواريون في اليوم التالي فقالوا لعيسى أن الشاب حيّ، فأخذهم و ذهبوا للشاب فرآه نائما رفع الوسادة التي ينام عليها الشاب فإذا بثعبان قضم الوسادة فقال له عيسى هذا الثعبان كان سيقتلك فماذا فعلت فقال أني البارحة كنت متصدقاً، فيقال تلك الصدقة تدخلت في الحكمة الإلهية و التدبير الإلهي.

[1] مثل مسألة تكذيب الله لنبيّه عليه السلام الذي أخبر بأن هذا الشاب لن يعيش لغدٍ.

الفنّ القرآني (١): حقيقة القرآن و غاياته

إنارة

من علامات دخول هذا الشهر الكريم تصفيد الشياطين و غلهم بالسلاسل و فتح باب السماء، هذه ليست أموراً اعتبارية بل هو واقع تكويني يحدث في الواقع الخارجي يوفق البعض له و يضل البعض عنه و لولا أهل البيت عليهم السلام إذ سددونا للهداية الى هذه المعاني في ساعة ليلة الجمعة و ليلة القدر و أصل الإعتناء بشهر رمضان و ساعات رجب و شعبان لحرمنا من كل هذا العطاء، كل هذه هدايات و تسديدات سماوية جرت على يد أهل البيت، و إلا لاحظوا الطوائف الأخرى السماوية! كما تعلمون: العامة عندهم حرب شعواء عند شعبان و رجب بدعوى أن كل هذه بدع و خرافات! و هذا ليس إلا لون من ألوان الحرمان عن الهداية الإلهية لأن هذا واقع خارجي تكويني يكشفه لنا الأئمة عليهم السلام، بل في بعض الروايات هذه من أسرار آل محمد الذين أرشدونا الى بعض جهاتها و حيثياتها.

و لتتضح الصورة ذكرنا أن للقرآن حيثيات ثلاث: الجهة المنطقية ، واللغوية، و الفنية. كنا نقصد بالجهة المنطقية أن القرآن الكريم في خطاباته و كلامه ينطلق على أساس موافقة الواقع من حيث إدراك ملابسات الواقع التكوينية في حركة الانسان و معادلات الانسان و حركة الأفلاك أو ماهو أرفع من ذلك من تأثير الأفلاك على حركة الوجود بل أبعد من ذلك من مسألة اللوح و القلم و العرش و الكرسي؛ بل أبعد أيضاً في أصل فلسفة هذا الوجود... كل هذه الأمور مأخوذة بعين الاعتبار و القرآن الكريم يتطابق معها و لا يوجد بين الحقائق القرآنية و بين حقائق الكون و التكوين تفاوت أو اختلاف، فالقرآن الكريم دقيق جداً في تعاطيه مع الواقع.

الجهة الأخرى و هي ما تكلمنا عنه من محكم و متشابه و نسخ و تأويل و هي أن لغة القرآن الكريم لغة خاصة بمعنى أن للقرآن خصائصه التعبيرية و منهجه في إيصال هذه المعاني و له فنونه الخاصة ثم بعد ذلك قلنا أن القرآن الكريم يصيغ مجموع هذه المعارف الفلسفية و هذه اللغة المفهومة يصبها في لباس من العاطفة و الرقة، و هذا ما يفسر لنا مجموعة ظواهر منها القصص في القرآن ، لفظ القرآن.

ما المراد بالقرآن؟

هناك خصوصية في القرآن الكريم ينبغي أن نبرزها تتضح بهذه المقارنة وهي أن أي كتاب علمي مهما كان دقيقاً في علميته و ممتلأ بمادته المعرفية، أو أي قصة روائية مهما كانت بديعة في عرضها و شيِّقة في دلالاتها.فإنك إذا قرأته مرة مرتين ثلاث تتشبع، من جهة علمية تحيط بالمادة المعرفية مع كثرة القراءة ومن جهة ثانية تفقد حالة الأنس بعرضه وبمضامينه و تصل الى مستوى من مستويات التشبع بحيث تصبح قراءته بعد ذلك موجِبة للمَلل و التكرار غير المفيد، و هكذا القصص الشيقة تلاحظ بعض الأحداث لفنيتها و إبداعها تأنس أن تشاهدها عدة مرات لكن بالنتيجة تصل إلى حد التشبع، أما القرآن الكريم فإنه حي و جديد كلما قرأته تجد لذة و متعة و أنس.

السر في الأُنس بالقرآن الكريم

و السر في ذلك الأنس لا الحيثية الأولى و هي الحيثية العلمية مع أنها مؤثرة بمعنى أنك كلما إلتفتَّ إلى معنى تجد أن هناك معاني جديدة ينطوي عليها القرآن يمدك بها و لكن القدرة القرآنية التي لا تنضب لا تكمن في الجهة العلمية و لا حتى الجهة اللغوية بل إن الجهة التي لا تنضب و لا تنتهي هي الجهة البلاغية و الفنية و من هنا تجد قصص متكررة عدة مرات مثل قصة نبي الله موسى و فرعون و قصة آدم تكررت في أكثر من مورد، حيث

استعرضت في موارد متعددة لكن في كل مورد لها نكهة خاصة تمتاز بها عن الموارد الأخرى و ذلك لأن طبيعة الانسان و تركيبته ليس هو عبارة عن قدرات ذهنية فقط و لا هو مشروع تنظيمي اجتماعي فقط! لاحظوا دعاة الإصلاح بعضهم يعتني بالجهة العلمية و يتصور أن الإرباك العلمي و الخلل العلمي هو سبب التخلف الاجتماعي أو عدم النهضة الاجتماعية في أي دائرة بشرية و هذا الكلام صحيح على نحو الجزئية بمعنى أنه كلما كان الوعي أكثر و الفهم و العلوم أكثر شياعا كلما كانت الحركة الانسانية أكثر نضجاً و أقوى و أتمّ، كما أنّ التركيبة الاجتماعية كلما كانت أكثر نظماً و برمجة وعلى وفق احتياجات الانسان كلما كانت احتياجات الانسان التقدمية أكثر نضجاً و سلاسة، و لكن ليست هاتين الجهتين هما الأساس، بل إنّ الجهة العاطفية و الروحية و الحسيَّة هي الأساس فكم من المجتمعات تجدها متشبعة فكريا و بناءها الاجتماعي لا يوجد به مشاكل و لكنها مُقيَّدة روحياً كما حصل في زمن الإمام الحسين عليه السلام الذي كان المجتمع في ذلك اليوم بمستوى من المستويات عنده وعي يميز بين شخص الحسين و يزيد ولا تخفى عليه الأمور بهذا الحد من الخفاء بل أنه حتى على مستوى المنهج الذي بين يديه كان هناك منهجاً اجتماعيّاً إلى حدّ مّا مقبول لو كانت عاطفته تُحركُه باتجاه الحق و الفضيلة و لَعلَّه تكرار هذه الحالة على مستوى الواقع الاجتماعي يدل على أنها ليست بَدعاً من الأحداث، فقد لمسنا في تجربة جزئية في هذا الزمان أنه في بعض الأحيان تكون الصورة واضحة بيِّنة و الحق واضح جلي و الباطل كذلك واضح و جليّ، و لكن أغلب الناس تراهم مترددين لإرباكات نفسية و عدم القدرة العاطفية و التمالك العاطفي. لا يكمن دور القرآن الكريم فقط في معالجة المرحلة التصورية وحسب ، و إن كان بناء المنظومة التصورية أمر أساسي و هذا ما أشرنا إليه أن القرآن الكريم جاء لينظِّم المفاهيم و التصورات و

الفلسفات المغلوطة و يصحِّحها كما أن القرآن الكريم يضع بين يدينا منهجاً اجتماعياً و سلوكاً، و هذا ما نسميه بالشريعة.

البعض يسمي الشريعة طريق و يسمي مقاصد بناء الروح التي نشير لها حقيقة، تكثرت المصطلحات و لكن المعنى واحد و هو أن القرآن الكريم يضع للانسان منهجاً و شريعة تأخذ بيده في سلوك الحياة؛ يعني أن القرآن الكريم يأتي للناس بشريعة متكاملة و نظم متكامل لبناء حياته سواء على المستوى الشخصي أو الأسري أو الاجتماعي، فالقرآن الكريم ينطوي على منهجة متكاملة لم يدع الانسان في تيه في هذه الجهات و كذلك يبني منظومته المعرفية و الفكرية و لكنه لا يكتفي بذلك بل يفتح له آفاق البناء الروحي من خلال نغمة خاصة، أنتم لاحظوا المفكرين و المهندسين الاجتماعيين و المجتهدين في تحريك المجتمع غالبا ما يغلب عليهم نمط معيَّن، لاحظ أنهم فيما يرتبط بالتغيرات الاجتماعية يدعون إلى تغيير الوضع الاجتماعي و البناء الأسري و ماشاكل ذلك ، فبعضهم يعيش الهَمّ الفكري ويرى أن الحل هو طرح التصورات،و تقديم بلورة للفلسفة العامة، وبعضهم يركز على النظم الاجتماعي، لكن أن يجمع هذين العنصرين مع عنصر ثالث في أنه يكون حيوي مثير للحياة في نفوس الناس، هذا ما يتميز به القرآن الكريم.

غاية القرآن: خلْق مجتمع حيوي فعَّال

من هنا نجد أنّ الروايات تؤكد على موقعية قراءة القرآن و لا يراد بالقراءة فقط فهم المعاني الموجودة في القرآن و إلا فإنَّ بإمكانك الوصول الى مقدار ما تستطيع فهمه من القرآن بعد عدّة قراءات في حدود ظرفيتك، و من جهة فقهية نجد أنّ المادّة الفقهيّة في الكتب الفقهيّة قد بيَّنت و فسَّرت و قُدِّمت لك كمنظومة سلوكية و لعلَّنا ننهج هذه المنظومة فلانحتاج الى قراءة القرآن لكي نسلك!، نحن في حياتنا اليومية نعيش بشكل عام و إن وجد بعض

الخلل الفقهي و الديني في بعض تفاصيل حياتنا و لكن بالإجمال هناك انضباط عام في سلوكياتنا العامة و مع ذلك نجد أن النهضة التي يسعى لها القرآن غير متحقّقة و غير متحصِّلة و ذلك لوجود خلل في البعد الثالث و هو تحويل هذين العنصرين الى حالة من الحيوية و الإنفعال و الحركية في حياتنا الاجتماعية، و نقصد بالحياة الاجتماعية أي في بناء الانسان لنفسه و اعتنائه ببناء منظومته الروحية من جهة، و إصلاح حالهِ و كذا بناء أسرته و منزله و أدب البيت فضلا عن اعتنائه و حيويته على مستوى تحريك المجتمع و نضجه، و لكي تتضح الصورة لابأس بالحديث ببعد اجتماعي لكي نعرف مدى ما نعيشه نحن من واقع اجتماعي.

الروايات تؤكد أن من سمع مناديا ينادي يا للمسلمين و لم يجبه فليس بمسلم[1]، ليس أنه آثم أو مخطئ بل أصل الاسلام يُسحب منه.

مدى تفعيل القرآن في مجتمعنا المعاصر

المجتمع الإسلامي حيوي فعّال مؤثر فاعل في الواقع الانساني، هذا هو التصور البدوي الأولي للمجتمع الإسلامي ، تعالوا الآن لننظر في واقعنا و مجتمعنا الإسلامي هل هو مجتمع فاعل هل هو مؤثر في الحركة الإسلامية؟ هل يقال في الأخبار و الإعلام أن مجتمعنا قد قرر أن يذهب يمين أو يسار فيؤثر في العالم؟ لا! ليس لنا هذا المدى في التأثير، أكثر من ذلك؛ هل نحن معفوُّون عن تأثير الأمم الأخرى فينا؟ المسألة أصبحت عكسيَّة، بدل أن يكون هذا المجتمع القرآني الذي يفعّل القرآن في وجدانه مجتمعاً فاعلاً مؤثراً له القيمومة على بقية المجتمعات و الفاعلية في المجتمعات الأخر، نجده هو انسحب إلى حدّ أنه لم يعُد مؤثِّراً، بل أكثر من ذلك فقد انسحب في جوفه و

[1] البحار، ج٧١، ٣٣٧.

داخله إلى أن أصبح هو مفعولاً فيه؛ بل أكثر من ذلك أصبح يفعَّل في اتجاه يريد الآخرون له أن يتجه صوبه، و يُضرَب به في اتجاهات و يُدفَع في ضمن معارك ليست لمصلحته و ليست ضمن هَمِّه!!، هذا المستوى يحكي عن حالة من الضعف و الخور و من عدم القرآنية في حياة الناس. دعوا عنكم الهيئة و الشكل و الإنقياد الخارجي لأننا قلنا أن للقرآن الكريم هذه الجهات الثلاث، هو يبث تصورات و يدعو الى فكر و منظومة فلسفية و هي بحمد الله موجودة، لو تلاحظ أن المجتمع الموجود اليوم من حيث أنه يمتلك إدراكا و وعياً، أنه من أين جاء و في أين يعيش و إلى أين سيذهب، بالمقارنة مع كثير من الأمم تجد عندنا مستوى جيد من النضج، لو ذهبنا إلى الشارع و سألنا أي واحد في الشارع نجد أنه يعتقد بالله و الآخرة و لديه تصور واضح عن كيف خُلِق و من خلقه و أنه موجود في مرحلة زمانية امتحانية و أنه مُقبِلٌ على مرحلة من الحساب، بالمقابل لو ذهبنا إلى الصين و اليابان و بقية الأمم الأخرى كالهند تجد عندهم تصورات عجيبة غريبة عن خلفية هذا الوجود!، فعلى مستوى المنظومة المعرفية هم لا يمتلكون شيء مقابل ما نمتلك. من جهة ثانية على مستوى البناءات الاجتماعية، لنذهب إلى أكثر الأمم تقدُّماً على مستوى الانسانية اليوم لنذهب الى أمريكا مثلاً نلاحظ كم يعيشون حالة من الإرباك على المستوى الاجتماعي اليوم! إذ أنهم حلَّلوا الأسرة بحيث انتهوا إلى أنه لا يجب أن يتقيد الشاب و الشابة في التركيبة الأسرية، و بطبيعة الحال في وقت يقع الشباب و حيويته لا يرى في الأسرة إلا تقييداً و حبساً و يريد أن ينطلق في هذه المتع و الحياة و لكن بعد سنوات من الإنطلاق يدرك أنه كسّر قيوداً هي التي تعطيه الاستقرار و الطمأنينة-على المدى البعيد- ، لاحظوا كم هناك فرق بين الشاب الذي يعيش ضمن أسرة من أب و أمّ و إن كان يبدو عليها نوع من القيود وتحديد لرغباته و لكنها في الحقيقة تثير في أعماقه و نفسه شعور الإطمئنان و الإحساس بالدفء الاجتماعي و الأُلفة الانسانية،

هذه المشاعر يفتقر لها أي مجتمع لا يحافظ على تشكيلة الأسرة, هذا نموذج من نماذج الإيجابية في واقعنا المعاش، نحن لا نريد أن نفقد التوازن أو نخلط بين الجهات الإيجابية و السلبية، كل هذه العناصر التي يفترض أن تتحول الى عناصر قوة و فاعلية و تحريك و انطلاق مع الأسف أصبحت غير مؤثرة بالنحو الصحيح. نعم الشاب يملأ ذهنه بمجموعة من العقائد الحقَّة و يوفِّر له الاعتدال الروحي من خلال الأسرة و المحافظة الاجتماعية لكن عندما يُكبَت المجتمع ككُلّ و يتحوَّل بدلَ أن يكون طاقة و حيوية في بناء نفسه و مساعدة الأمم على مستوى الأخلاق الانسانية و القِيَم!، نجد أنه لا يستطيع أن يفعّل هذه الأمور بل أكثر حيث أنه هو لا يستطيع الحفاظ على ماعنده من قدرات و أسباب مُغالَبة فيشكِّك في ما عنده من قُدرات. الآن أصبح الشاب المؤمن المتديّن يشكِّك في بناءاته و عقائده و ذلك لأنه لا يرجع في ذلك إلى القرآن، و لم يُحوِّل هذه التصورات و هذا الواقع الاجتماعي بحيث يجعل منها أسباب قوة، بلا شك سمعنا بهذه الرواية **(المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف)**[1] وواضح أنه ليس المقصود من الرواية هنا الشديد بالصّرعة كما يعبّر الرسول صلى الله عليه وآله **(ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.)**[2] ليست المغالبة بالبدن و إنما الغلبة بقوة الروح و التماسك الروحي، عندما تكون في يدك العقائد الحقَّة و عندما تكون في واقعك الاجتماعي هذه المباني و السلوكيات الصحيحة، لماذا يربكك أي طرح مقابل؟ لماذا يقلقك؟ إلا إذا تكون هذه العقائد و التصورات و المناهج التي

---

[1] النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت - لبنان: ٤-٢٠٥٢-٣٤.

[2] تنبيه الخواطر: ١ / ١٢٢ .

أعطيتها من منبع العصمة لا تمتلك لها اطمئنانا و تماسكا و قوة في عقيدتك بل أخذتها أخذا موروثا و ما جاءك باللين يذهب من يديك باللين.

تأكيد الروايات على ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم

من هنا نجد أن الروايات الواردة عن الرسول ﷺ و عن أهل بيته تؤكد على أهمية الرجوع الى القرآن، هنا هذا الشعار قد كثر تكراره و لكن بعد تفريغه من معناه، و هو أن المجتمعات الإسلامية في أمسّ الحاجة الى العود الى الإسلام و القرآن، هذا الكلام معناه صحيح و حقيقي لكن لا بالمعنى الذي يطرحه بعض الجهلة الذين يتصورون أن الإسلام هو إرباك الناس و إرباك الواقع الإجتماعي بالعنف و الخشونة و الغلظة، بل بمعنى بناء العقيدة داخلياً، لاحظوا الروايات كم تؤكد على الإنطلاق من القرآن الكريم! عن الباقر عليه السلام أن **(لكل شيء ربيع و ربيع القرآن شهر رمضان)**[1]، رجوعاً إلى أصل الحديث أن القرآن الكريم هو دائماً و أبداً محيي القلوب و مثير الإيمان في القلوب و لكن في هذه الأيام بالخصوص لِما يكون للقلوب من حالة استعداد خاصة في هذا الظرف فتكون القلوب مهيئة لزراعة المفاهيم القرآنية و إحياء المعاني القرآنية في القلوب، يقول الرسول ﷺ: **(تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور)**[2]، هنا لا يعني الأمراض الطبيّة، الرسول ليس طبيب أبدان بل طبيب روح و هداية و يقصد بشفاء الصدور أي شفاءً لأمراض الصدور و به ما يخالج الصدور من حالة شك و ظَنّ و تردُّد في هذه المفاهيم و القِيَم، فالقرآن الكريم يقوّم ما في نفسك و أعماقك نتاج الفطرة و معطيات الفطرة، يؤكدها و يؤسسها ويبنيها و يُوجِّهها بالاتجاه الصحيح، في هذا السياق يقول الرسول

---

[1] وسائل الشيعة، ج٦، ٢٧٣، ح٢.

[2] البحار، ج٢، ٣٦.

ﷺ **(أهل القرآن هم أهل الله و أشراف أمتي هم حملة القرآن)**[1]، فمن خلال القرآن الكريم يصبح الانسان هو من أهل الله و من أشراف الناس و من أصحاب الرُّتب العالية و ذلك أن القرآن يبني هذه المراتب الروحية في نفس الانسان. لا بأس في الاستفادة من نصوص أهل البيت ، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: ***(إذا جمع الله الأولين و الآخرين فإذا هم في المحشر و في ذلك اليوم الشديد فإذا هم بشخص قد أقبل لم يروا أحسن منه***؛- من هو هذا الشخص؟-، ***فإذا به القرآن الكريم حتى يقف على يمين العرش فيقول الجبار جل و علا و عزتي و جلالي و ارتفاع مكاني لأكرمنّ اليوم من أكرمك و لأهينن من أهانك)***[2]؛ هذا التبجيل و التعظيم للقرآن الكريم إشارة إلى خطورة إهماله، هنا الله جل و علا أجلّ و أرفع من أن يعذِّب الانسان بما لم يكتسبه الانسان، يعني أن هذا العذاب ناتج من مقتضى طبيعة سلوك الانسان، توهين الانسان للقرآن بإهماله و إغفاله سوف يؤدي به الى الضعف و الخور و الخواء. إذا أصبحتَ خاوياً ناشفاً فإنه مهما جرى على لسانك من شعارات و عناوين كقولك: أنا أوالي أهل البيت عليهم السلام و أوالي علي بن أبي طالب و أنا من شيعة علي لكن في واقعك و حياتك، بناءاتك الداخلية فيه توهين لكتاب الله فلن يكون مصيرنا –أنجانا الله و إياكم- إلا الهلاك يقول الرسول ﷺ: (***من قرأ القرآن و ظن أن أحدا أعطي أفضل مما أعطي***؛ -يعني إن أُعطي أحد القرآن و تفرّغ للقرآن و دراسته و العيش مع معانيه ثم ينظر إلى أهل الدنيا فيجد في أيديهم شيء من الدنيا فيظنّ -مجرد أن يظنّ قبل أن يتحرك- مجرد أن يشعر أنّ ماعنده من القرآن لا يساوي ماعند أصحاب الدنيا-، ***من قرأ القرآن و ظنّ أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي فقد حقّر ما عظّم الله***؛- هذا تحقير لحق

---

[1] البحار، ج٨٤، ١٨٣.

[2] الجواهر السنيّة في الأحاديث القدسية، ٣٤٠.

القرآن الكريم-، *و عظَم ماحقره الله)*[1]؛ أي أنه يعيش حالة من الانتكاس و ذلك لعظم مقام القرآن و لعظم ما يزرعه القرآن الكريم في نفوس الناس، فوظيفة القرآن ليست مجرد التعليم أو الإرشاد السلوكي بل الهدف الأساس من القرآن الكريم هو تحويل هذه الآراء و الأفكار وتحويل هذا الواقع السلوكي الذي يمدّنا به في نظمنا الحياتي، إلى بناء قويم و هذا ما أشارت إليه الآية القرآنية أن الله جل و علا ﴿يَهْدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْديهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾[2]؛ بمعنى أن الله جل و علا بعد أن يرفع الانسان و يبنيه على مستوى الفكر، يبنيه أيضاً على مستوى المنهج العملي و يثير في نفسه حالة من الحيوية و الروحية لبلوغ هذه المقامات و هذا التتالي ليس موازٍ للمنّ الإلهي بل للجري الفعلي الخارجي.

المراد بتلاوة القرآن و كيفيتها

و من هنا نقول أن التعامل مع القرآن يجب أن يكون تعاملاً صادقاً، أن نجلس بين يدَي القرآن مجلس من يُحزِّن نفسه كما تعبر الروايات، أي نثير في أشجاننا مشاعر المقاصد التي يريدها القرآن الكريم لا أن يكون هَمَّ الواحد مِنّا أن ينجِزَ الجزء أو يطوي مسافة معينة من التلاوة لأن هذه ليست بتلاوة!، التلاوة أن تثير في أعماقك و في نفسك و أن يكون عندك علاقة امتدادية و ثيقة مع القرآن الكريم. نرجو من الله سبحانه و تعالى أن يمُنّ علينا و عليكم و أن يبني لنا أرواحاً و إحساساً في التعامل مع القرآن الكريم بحيث نشعر بلذّة، و أنه فعلاً ربيع قلوبنا هو القرآن الكريم و الحمد لله رب العالمين و صلى الله على محمد و آل بيته الطيبين الطاهرين.

---

[1] أمالي السيد المرتضى، ج٤، ٢٥.

[2] المائدة/ ١٦.

فن القرآن وطبيعة معالجة الأئمة عليهم السلام للخطابات

القرآنيّة العامّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظيمِ (٢) الَّذي هُمْ فيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (٦) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (٧) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (٨) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (٩) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (١٠) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (١١) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (١٢) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (١٣) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (١٥) وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ ميقاتاً (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (١٨) وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (١٩) وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (٢١) لِلطَّاغينَ مَآباً (٢٢) لابِثينَ فيها أَحْقاباً (٢٣) لا يَذُوقُونَ فيها بَرْداً وَ لا شَراباً (٢٤) إِلاَّ حَميماً وَ غَسَّاقاً (٢٥) جَزاءً وِفاقاً (٢٦) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (٢٧) وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (٢٨) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقينَ مَفازاً (٣١) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (٣٢) وَ كَواعِبَ أَتْراباً (٣٣) وَ كَأْساً دِهاقاً (٣٤) لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً (٣٥) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (٣٦) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَوابا﴾[1].

---

[1] النبأ/ ١-٣٨.

الأئمة عليهم السلام يخبروننا أنَّ للقرآن بُطون

ورد عن الإمام أبي الحسن الماضي -كما عبرَت الرواية- أي الإمام الكاظم عليه السلام كما ورد في أصول الكافي أنه قال في تعقيب قوله عز وجل (يوم يقوم الروح) قال: نحن و الله المأذون لهم يوم القيامة و القائلون صوابا فسأله الراوي قلت ما تقولون إذا تكلمتم قال عليه السلام: نمجد ربنا و نصلي على نبينا و نشفع لشيعتنا و لا يردنا ربنا[1].

مما علَّمنا أئمة أهل البيت عليهم السلام و أخذناه أخذاً سهلاً يسيراً هو تفسيرهم لبعض ظواهر القرآن بهم عليهم السلام حتى أنه بلغ بهم الأمر أن قالوا أن القرآن أربعة أرباع ربع فينا و ربع في عدونا و ربع فرائض و أحكام و ربع حلال و حرام[2] بل ورد عنهم أن القرآن ثلاثة أثلاث ثلث فينا و في عدونا و لعله لا يخفى على شيعي أن التفسير في حق هذه الآية عَمَّ يَتَساءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظيم﴾ أن النبأ العظيم هو علي بن أبي طالب عليه السلام و هذا ما يتهم فيه العامة مفسري الشيعة بأنهم باطنيون غنوصيون غيبيون تأويليون!؛ يعني أنه ليس ظاهر الآية ما يقوله الشيعة، لا ظاهر قوله عز وجل ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظيم﴾ أن الحديث علي بن أي طالب و لا ظاهر قوله عز و جل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَوابا﴾ أنها مرتبطة بأهل البيت و لكن كما ذكرنا أن الرواية الواردة عن الإمام الكاظم عليه السلام جاء في ذيلها قوله عليه السلام (نحن و الله المأذون لهم يوم القيامة القائلون صوابا)

---

[1] البحار، ج٢٤، ٢٥٧.

[2] البحار، ج٢٤، ٣٠٥.

فسأله الراوي قلت ما تقولون إذا تكلمتم قال عليه السلام: (نمجِّد ربّنا و نصلي على نبيّنا و نشفع لشيعتنا و لا يردّنا ربّنا)[1]

إنارة: لكلّ سورة روح عامّة تربط بين مقاطعها

التفت بعض المدققين في تفسير القرآن الكريم إلى أن السورة ذات مقاطع فمقطع يتكلم عن مِنن الله في هذا الوجود فيقول الله عز و جل: ﴿أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (٦) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (٧) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (٨) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (٩) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (١٠) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (١١) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (١٢) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً﴾. هذه مِنَن و فضائل و نِعَم على الانسان في هذا الوجود.

أحد العلماء الذين فسَّروا القرآن يقول أنك إذا تأملت في كل سورة تجد أن هناك خيط رفيع يبدأ من أول السورة الى آخرها بغض النظر عن تنقلات السورة و محاورها التي تعالجها و أغلب السور لها هذه الخصوصية و هي وجود روح عامة في وسط هذه السورة و لكن تحتاج الى حالة من التأمل و الالتفات و التدبر في طبيعة السور القرآنية.

الروح العامّة لسورة النبأ

هذه السورة التي بين أيدينا من هذا القبيل إنها تستفتح بقولها: ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظيمِ﴾، فالكلام عن الآخرة حسب الظاهر و لم نفهم موقع أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد، إلا أن يكون نحو من الغنوصية و الباطنية و ما شاكل ذلك. الغنوصية يقصدون فيها حالة من تحميل الأمور الظاهرية على نحو من أنحاء الغيب و الانتقال الى لون من ألوان التأويل ، و لكن لو لاحظنا هذه السورة عندما تعالج مسألة الغيب و الآخرة، (عَمَّ

---

[1] البحار، ج٢٤، ٢٥٧.

يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظيمِ) هو هذا المدخل، الكلام عن حالة المشركين في مسألة يوم القيامة، لاحظوا هذا الوجود بما فيه من مِنَن إلهية عامة من الجبال و الليل و النهار، كل انسان يقر بعطاء الله في نفسه، راجع نفسك تجد أن لله عليك فضائل في وجودك و نفسك و أحوالك، تجد أن لله عليك أيادي كثيرة في نموّك، و لكن الكلام ليست عن هذه النِّعَم؛ بل الكلام عن عموم النِّعَم على بني البشر؛ لأنها تريد أن تتكلم عن نهاية المطاف، (عَمَّ يَتَساءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظيمِ) و من هنا تكلمت عن (خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (٨) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً) ثم في مرحلة من المراحل أيضا تكلمت عن (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ ميقاتاً) و أن هذه الحالة من النعيم و العطاء و ماتعيشونه من نِعم له خاتمة و نهاية أي أن يوم الفصل له موعداً و نهاية لهذه الحالة. هنا لايريد القرآن أن يستعرض هذا الواقع فقط و إنما يريد أن يثير أيضاً حالة من الوعظ و الإرشاد و التخويف بأن يوم الفصل ليس أمراً سهلاً و هيّناً! يريد أن يعطي هذا اليوم حقّه من التهويل و العظمة فيقول (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ ميقاتاً (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (١٨) وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً)؛ سيكون حالة الانفصال بين مصير بعض الناس و أن بعضهم سوف يكون مصيره أنه (لِلطَّاغينَ مَآباً (٢٢) لابِثينَ فيها أَحْقاباً (٢٣) لا يَذُوقُونَ فيها بَرْداً وَ لا شَراباً (٢٤) إِلاَّ حَميماً وَ غَسَّاقاً)، ثم ينتقل الى حال المؤمنين الذين حالهم هكذا (إِنَّ لِلْمُتَّقينَ مَفازاً (٣١) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (٣٢) وَ كَواعِبَ أَتْراباً)؛ لاحظوا كل هذا التسلسل يأتي يوم القيامة مرة ثانية، الذي كان في أول الحديث عندما يقول: (رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً)، رجع التفسير الذي في بداية الآيات و في بداية السورة جعلت من يوم القيامة هو علي و جعلت من المتكلمين هم الأئمة عليهم السلام فالاية من أولها كأنما وضع فيها قوس و هو أنه يوم القيامة هو علي بن أبي طالب النبأ العظيم

هو أمير المؤمنين و في آخر الكلام يوم الفصل سوف يكون المتحدث فيه هم الأئمة عليهم السلام، ماهو السر في ذلك؟ هذا نموذج في الحقيقة نريد أن نستوضحه لكي نفهم طبيعة معالجة الأئمة لعموم ما في القرآن الكريم.

لعلنا ذكرنا أن الأئمة عليهم السلام فسروا الزجاجة في قوله عز و جل: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[1]؛ بأنها الزهراء و فسرت شجرة مباركة بأنه إبراهيم. لنأخذ هذا النموذج الذي بين أيدينا في أن ظاهر الآية عندما تتكلم عن النبأ العظيم يفسره أهل البيت بعلي بن أبي طالب. هناك مجموعة قواعد لها مدخلية في وضوح هذا المعنى، هناك ما يسمى بتجسد الأعمال و هناك ما يسمى بالاعتبارية في حياة الانسان، و تجسد الأعمال يقابل تماما الاعتبارية في حياة الانسان.

قاعدتان متقابلتان في بيان المقصود بباطن القرآن

١/ الاعتباريّة في حياة الانسان الدنيويّة

الانسان كموجود اجتماعي يعيش كثيراً من مستويات الاعتبار في حياته، يعني أن الواقع الاجتماعي يُرسَم بكيفية و أن حياة الانسان متقوِّمة بمجوعة كبيرة من التواضعات و الاعتبارات، الانسان -باعتباره كائن اجتماعي- يحتاج الى التشكيلة الاجتماعية، يحتاج في ترتيب أموره إلى مجموعة من التواضعات في تحديد ما هو ملكك و ملكي و تحديد دائرة حريتك و عملك، بل أن هذا الواقع الاعتباري ترسَّخ في حياة الانسان الى حدّ أنه نسي أنه اعتبار و أصبح يعيش هذه الأمور كأنها واقع وحقيقة, الإعتبار في حياة الانسان مثل مسألة الزوجية بين الرجل و زوجه، ماذا يعني أن هذا الرجل زوج لهذه المرأة، هل خلف الاعتبار الاجتماعي شيء واقعي؟، لا يوجد شيء حقيقةً؛ بمعنى أنه

---

[1] النور/ ٣٥.

بمجرد إجراء الصِّيغة أو أي لون من ألوان التواضع الاجتماعي! الزوجية لاتحدث شيء جديد بعد الزواج غير ما كان موجوداً قبله، إلا الاعتبار و التوافق الاجتماعي، هذا في الزواج. و الحال نفسه في مسألة الملكيَّة، ملكية المنزل و الأرض والبيت، الملكية على كل المستويات أمور اعتبارية بل أنهم يرتبون على هذه الملكية كثير من الترتيبات و في كثير من الأحيان يفتقدون القدرة على تتبُّع هذه الاعتبارات لأنها تكون ذات مراتب و مراحل الى حد أنهم يعيشون مع هذه الاعتبارات كحقائق خارجية، يوم القيامة يوم الفصل، النبأ العظيم، كل مايكون فيه هو انكشاف هذه الاعتباريات و بروز الحقائق التكوينية فقط لا غير. يوم القيامة هو يوم الحياة لايوجد إلا ماهو حي واقعاً و لايوجد شيء إلا وهو في الخارج له واقعية و مصداقية و تقرر، فتزول كل هذه الاعتبارات، لاحظوا نحن في عالمنا نمتلك موازين في التقديم و التأخير، ما هو ضابط أن يُقدَّم هذا و أن يؤخَّر ذاك، نحن لا ندرك حقيقة المقدم من المؤخر و لكن نزن الأمور بموازيننا، لعله تدخل فيها مثلاً أنه: أجمل، أقوى، أغنى، أجرأ، و أشدّ بأساً، مجموعة هذه المعايير تختلط في الحياة الواقعية فتتشكل منها التقدم و التأخر في حال أنه في يوم القيامة هذه المعايير كلها ليست إلا موازيننا و معاييرنا نحن، هذا بالنسبة الى مسألة الاعتبار.

٢/ تجسُّد الأعمال

يُراد بمسألة تجسد الأعمال أننا كل ما نقوم به من أعمال قد يبدو لنا في الوهلة الأولى أنها أمور اعتبارية و الحال أنها أمور واقعية! ماتقوم به من أعمال الآن على المستوى الفيزيائي هي أمور واقعيّة، فقط لتقريب الفكرة أقول أن ما يجري في هذا الكون على المستوى الفيزيائي كله محفوظ و مثبت، أي حركة تقوم بها أي صوت تصدره أي طاقة تنفذها فإنها لا تتلاشى و لاتنعدم؛ بل الآن يقولون لو حصلت واقعة معينة كما لو أن شخصا تحرك في

هذا المجلس فإنه يمكن بعد فترة زمنية أن يُأتى بآلات يبحثون عن بقايا الحرارية لهذه الحركة فيُضبط ماحدث في هذا المكان و يثبتون أن زيد من الناس قد قام من هذه النقطة الى هذه النقطة ثم تحرك بهذا الشكل إذن الحركة لم تتلاشَ بل حتى بعد أيام و دهور، إذا كان الآن لا يمكنهم ضبطها لا يعني أنها تلاشت، عدم إمكان ضبطها شيء و تلاشيها شيءٌ آخر. هذا على المستوى المادي الفيزيائي.

على المستوى الواقعي و الروحي أيضا الحال كذلك بمعنى أن ما تحدثه من أحداث ينعكس على وجدانك و مشاعرك و على ذاتياتك انعكاساً واقعياً! حسب تعبيرهم الفلسفي يقولون (سعتك الوجودية تتأثر) يعني أنت كموجود من خلال هذه السلوكيات و الحركات تنمو تتسع في إدراكك و وعيك و بصيرتك، هذه الجهات الوعي و البصيرة و الإدراك إنما ناتج عن سعتك في ذاتك؛ بمعنى أنه بمقدار ما يصدر منك من فضائل و خير و بركة على الناس، فإنّ ذاتك هي التي وجدت و نمت و كبرت، إن سعة إدراكها و استيعابها ناتج عن توسع ذاتك و هذا التوسع أمر واقعي خارجي لو كنا نمتلك آليات استكشافية لطبيعة وجودك لمسسنا أن وجودك قد تضخم و اتسع بعد أن كان صغيراً، و لذلك يقال أنه (كل موجود يتحرك في نمو و اتساع وجودي) و هذا معنى أن الأعمال ذات آثار كبيرة جداً نستوحيها من الروايات الواردة في ثواب الأعمال ودرجات العاملين كما مرّ من أن الحسنة الواحدة تصدر منك ترفع في شأنك درجة لا يستطيع زميلك في هذا الوجود أن يدرك مدى هذه الحسنة يوم القيامة إلا كما ينظر الشخص إلى النجم!، كيف تنظر الى النجم في علوُّه و بُعدِه؟، هذه الحسنة تجعل منك كالنجم في تقدمك و سعة وجودك و في ابتعادك في سيرك في مراتب الكمال، و هذه الأمور واقعية خارجية تكوينية و ليست أموراً اعتبارية.

الإمام علي عليه السلام: النبأ العظيم

إن ما نعتبره حقيقة و نرتب عليه الآثار أغلبه أمور اعتبارية و ما نفترض أنه أمور اعتبارية أغلبه أمور واقعيّة لها تقرر في الخارج.

من هنا نأخذ كنموذج لتوضيح هذا المعنى في حق علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين شخص عاش ضمن ظروف معينة سلك مسلكاً معيناًو واجهه أعداء من نمط معيّن انتهت بهم الحياة و ذهبوا كلهم. انتهت الأمور هكذا؟ لنراجع التاريخ الذي حصل، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب انسان عاش حالة مبدئية نقية نظيفة لم يترك المبدئية في آن من آنات حياته منذ صغره كان مبدئياً نقياً نظيفاً مظلوماً كما يعبّر هو سلام الله عليه قال كنت مظلوما منذ صغري ينقل عنه يقول أنا من ظلامتي أنه منذ كنت في الصغر كان عقيل أخي إذا يمرض فيتأبّى على العلاج لأن أغلب معالجاتهم كانت قاسية فكانوا يذيقونني العلاج لكي يقبل عقيل عليه السلام، و من صغره كان منافحاً مدافعاً عن رسول الله حتى عندما كان صبيا صغيرا كان يسير خلف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فكان المشركون يرسلون الأطفال لإيذاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيستحي الرسول أن يتابع هؤلاء الأطفال الأشقياء الذين يرمونه بالحجارة فيأتيهم علي فيقضم آذانهم و أنوفهم حتى سُمّي بالقاضم! هذا انسان منذ بدء وجوده مظلوم و كريم عزيز حتى بلغ بهم الظلامة أنه هو في علمه و نقائه و قدرته و في بطولاته يقارَن بغَيره!! فيقدَّم معاوية و غيره و يؤخَّر علي ، هذا الوجود لو كان يَسوى جناح بعوضة ما كان جزاء لمؤمن و ماكان عقوبة لكافر فإذن هو أدنى من جناح بعوضة، ما معنى أنّ يوم القيامة هو أمير المؤمنين عليه السلام، ما معنى أنه هو أول مظلوم ظُلم؟ هل تعني أول مظلوم في التاريخ؟ من جهة زمانية ليس هو أول مظلوم ظُلم في التاريخ، كثيراً ما وقعت ظلامات في تاريخ الانسانية منذ أيام هابيل و قابيل من بدء البشرية وقع ظلم و قتل و سفك دماء، أول مظلوم يعني أوضح ظلم من أنواع الظلامة، لاحظوا كل نزاع تجدون في أطرافه جهة

عندها عشرة بالمئة من الحق و جهة تسعين لكن في النتيجة هناك مقدار من الحق في الطرفين كما أن هناك مقدار من الباطل في الطرفين أيضاً، و يحصل تنازع و لكن أن يكون الحق مئة في المئة خالص عند علي و مع ذلك لايُعطى شيء من الحق و يُظلم هذا اللون من الظلامة في كل عمره، حتى أنه يقول عليه السلام: إن هاهنا لعلماً جما لو أجد له حمَلَة!.انسان يسير بعلومه و معارفه و يطرق أبواب المحتاجين للمعارف لا يجد إلا الصلف الضلف لايجد من يتحمل هذه المعارف حتى كأنه يتألم من ثقل هذه المعارف التي لايجد من يستحقها! يوم القيامة لا يحصل شيء، كل ما يحصل هو زوال هذه الشوائب و الظلامات و الضلال و يبرز الحق، كل ما يحصل يوم القيامة عندما تتكلم الآيات عن نزول الملائكة و تغير السماء غير السماء و الأرض غير الأرض و ظهور المُلك لله، يومئذ إنما يحصل هو بروز الواقع و إزالة الغواشي و السحب عن نظر الانسان و لا يبقى إلا الحق على ما هو عليه، أبرز ألوان الحق التي سوف تتضح و تبِين بمجرد أن نزيل هذه الاعتبارات من حياة الناس هو حق علي بن أبي طالب عليه السلام، و أنه كم استطاع أن يجسِّد القِيَم في أتَمّ جمالها وأحسنها و أجملها و بالمقابل هو الذي سُتر عليه و اتُهم في ذاته و نفسه و إمكاناته. إذن مسألة النبأ العظيم و إن كان هو يوم القيامة و لكن أبرز ألوان هذا النبأ العظيم هو بروز أحقيّة علي بن أبي طالب و أهل بيته.

التأويل و بطون القرآن

لاحظوا أن هذا المعنى ليس من التأويل في شيء بالمعنى المرفوض عند البعض و إنما التأويل هنا ليس إلا ظهور الحقائق على ماهي عليه، تجسد الأعمال، هذا لون من ألوان تجسد الحقائق بل هي متجسدة الآن لذلك الروايات تؤكد على أن الجنة و النار موجودتان كل ما هناك أن الانسان غافل لاهي، و لا يلتفت و لا يمتلك القدرة الواقعية على أن يفهم. تأتي الروايات

لتفسِّر له ما يراه ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾؛ فيوم القيامة النبأ العظيم هو ظهور الحقائق على ماهي عليه و أبرز هذه الحقائق هي هذه الحقيقة التي هي واضحة و بيّنة و لذلك فإن أهل الله لا يتفاجؤون و لا يندهشون و لايرتاعون و لا يستغربون من هذه الحقائق، إنّ الذي يرتاع و يندهش و تصرعه هذه الحقائق هو من يعيش خلافها و يعيش ظاهر الحياة الدنيا و هذا يصيبه الجزع يوم الفزع الأكبر و هذا معنى واضح جلي في النفوس، أنت متى تفزع؟ عندما يأتيك شيء على خلاف ما أنتَ متوقِّع، بمعنى لو خرج أحدنا من هذا المكان و لم ير أحداً فإنه لا يفزع و لكن لو خرج و رأى أحدهم واقف فإنه يتهيأ و يتوقف، أما لو خرج و اندفع أحدهم في وجهه فإنه يفزع قليلاً أما لو خرج وشاهد أسداً هو لم يتهيأ و لم يستعد لهكذا أمر، لكن لو تهيأت أنك ستخرج و تجد أسداً فإنك قد تتخوف و تستعدّ و لكن إذا خرجت لا يصيبك الفزع، الفزع هو ما يصيب النفس قبال ما يواجهها بشكل مفاجئ! الذين يعيشون مع قِيَم الآخرة و يفهمون هذه المعاني ، بمقدار ماتعيش من استعداد و ترقب بواقع الآخرة فإنك تقبل على الآخرة باطمئنان و بتهيؤ نفسي و باستقرار نفسي ،و بمقدار ما تكون مشغولاً و لاهٍ و غير متوقع فإنك تفزع و أوضح نموذج لهذا المعنى هو الموت، المؤمن يأتيه الموت سهلاً سلِساً لأنه في كل آن هو يهيئ أوضاعه يعيش الآخرة كأنه يموت غداً فهو لو طرق عليه الباب قبل دقيقة فهو قد صلى صلاة المودِّع وعاش عيشة المودِّع فإذا جاءه الوداع هو متهيء من البداية و لكن ذاك الذي يعيش عيشة المؤمِّل الذي ينظر الى آخر الوجود و يفترض أن وجوده يستصحب هذا العالم، يفاجئه الموت بعد قليل فإنه يرتاع لأنه غير مستعِدّ و هذا لايربك وضعه فقط و إنما يروّع الروح و يربك المشاعر و الأحاسيس.

فنّ القرآن في صياغة النّفس

بسم الله الرحمن الرحيم قال عز و جل في محكم كتابه الكريم ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا في أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ في كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾[1] صدق الله العلي العظيم.

كلّ ما في هذا الوجود مسجّل في كتاب

بدواً نقف مع مفردات هذه الآية بشكل سريع لكي نلاحظ ما هو المراد من هذه الآية و ماذا يدعمها من معطيات المعرفة و العقل الانساني، ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصيبَةٍ﴾ المصيبة هي كل ما يصادف الشيء و يجتمع معه كما يقال أصاب السهم الهدف، و الإصابة سواء كانت في أمر خيّر أو أمر شرّ نقول أصابني خير و أصابني شر، و إن كان في غالب الأحوال يطلق الإصابة في مورد الشر و لذا يسبق الى الذهن أنه أصابته مصيبة يعني شر، و إن كانت النفس إذا أصابتها مصيبة لا يقتضي أن يكون شرّاً قد تكون أصابته مصيبة خير و لكن أصبح من المتبادر للذهن أن قول أصابه شيء يعني أصابه شر. ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا في أَنْفُسِكُمْ﴾ هنا ليس هناك تقابل بين في الأرض و لا في أنفسكم ففي التقابل يقال في الأرض و لا في السماء لكن هنا يراد إبراز لون من ألوان الإصابات وهي ما يرتبط بالانسان فما يقع من أحداث و واقعيات في السماء ليست هي محل الحديث، و إلا هي مشمولة بالقاعدة العامة التي سوف تأتي، لكن إذا عمّمنا الإصابة على كل ما يصيب و عمّمنا الموضوع إلى ما

---

[1] الحديد/ ٢٢-٢٣.

هو أعم من الإصابات الخاصة بالأرض و بالأنفس فسيكون معنى الآية أن كل ما يقع في هذا الوجود هو في كتاب و هو المتبادر في الذهن من الآية أن (ما أَصابَ مِنْ مُصيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ)؛ أي ليست هناك خصوصية لهذه الإصابات و إنما إبرازها لما لها من أثر في الانسان!، فالمعنى الذي تريد أن تقوله الآية أن كل ما يجري في هذا الوجود في كتابٍ لا يضل ربي و لا ينسى، ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض و لا في أنفسكم إلا في كتاب﴾.

ماهو هذا الكتاب؟

فسِّر بأنه اللوح المحفوظ و فسِّر بأنه في علم الله و قد يقال أن اللوح المحفوظ ليس إلا مرتبة من مراتب علم الله، هذا بالإجمال نقوله و ندع تفصيله. هناك شيء اسمه (كتاب) و طبعاً هذا الكتاب ليس كالكتب التي نألفها مشكّلة من قراطيس و ندون فيها بالمداد و التي تسجل فيها بالحروف لأن من الواضح أن الكلام ليس عن مثل هذا الكتاب، بل هناك مرتبة وجودية تحتوي على الوقائع التي سوف تقع و هذا هو معنى هذا التعليل ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾ أن كل ما يقع في هذا العالم من مجريات و أحداث سواء كان ملائم لك أو غير ملائم هو مُسجّل في اللوح المحفوظ و هو هذا المعنى الأوَّلي للآية، أن ما كان يصيبك ما كان ليخطأُك و ما اخطأك لم يكن ليصيبك فمن هنا إذا اقتنعت بهذا المعنى و تيقنت به فإنه ينعكس على وجدانك بحالة من الإطمئنان فلا تأسى على مافات و لا تفرح بما جاء.

دقة تعبير القرآن عن مضمون الكتاب

هنا نلحظ الدقة القرآنية حيث لم يعبّر بمافات و ماجاء بل قال (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ) ماهو فاعل الفوت؟ هو الشيء الذي كنا نتمناه فيكون المعنى لكي لا تأسوا على تقلب الأشياء و فواتها لاحظوا أن الأشياء هي التي تفوت، أما في طرف الذي يجيء فيعبر القرآن الكريم في دقة تعبيرية: (وَ لا

تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ) من الذي آتاكم، من هو فاعل الإيتاء؟ تارة يفوتك مال ما الذي فات؟ هو المال، فاعل فعل الفوات هو المال و لكن عندما يقال آتاني الله مالاً، المال مفعول به و الذي أحدث الإعطاء هو الله جل و علا لاحظوا الآية القرآنية هكذا تعبّر (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ) المال هو الذي فعل عملية الفوت و الفرار و التفلت بينما و (لاتفرحوا بما آتاكم) يعني الله آتاكم و ذلك إشارة الى أن الفوت و التلف من شأن الأشياء، مهما أعطاك الله من نِعم لو لم يمدّها بالمدد الإلهي لكان من شأنها أن تتفلت!، الله يعطيك الشباب و الصحة و العافية و المال، و لكن لا الشباب و لا العافية و لا الصحة و لا المال من طبعه البقاء و الاستمرار ما لم يمدّك الله بشباب و عطاء و مدد. هذه إشارة عابرة في ضمن تركيبة الآية و في الدقة التعبيرية مع أن الفارق في غاية الدقة من حيث اللفظ. و لكن من حيث المعنى له أثر و له دلالة.

الزهد هو ثمرة الإيمان بمضمون ذلك الكتاب

ورد في ذيل هذه الآية أن الإمام الصادق عليه السلام سُئِل عن حدِّ الزهد ما هو تعريف الزهد و كذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تعريف الزهد و كلا المقولتين نقلتا نفس المعنى أن الزهد كله في آية من القرآن، أو بتعبير الرواية الثانية الزهد كله بين كلمتين في القرآن ﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم﴾[1]؛ هذه الآية انطوت على كل تحقيق الزهد.

لتوضيح معنى الآية على المستوى الواقعي نقول أن هذه المسألة تحتاج إلى بعض المقدمات:

---

[1] البحار، ج٧٠، ٥٢.

قاعدة مهمّة في بيان المسألة

عند الحكماء قاعدة يسمونها **(الشيء مالم يجب لم يوجد)**؛ يقولون كل ما في هذا الكون من جزئيات و أحداث و وقائع لولا أن الله أوجبها و أعطاها حالة الوجوب لما كان فيها قابلية التحقق في الخارج، و يفسِّرون هذا المعنى بالقول أن هذا الوجود قد يُتراءى للبعض أنه متقوِّم بالاتفاقات و الصدف - حسب تعبيرهم البخت-، يقول الحكماء أنه لاحقيقة لا للصدفة و لا للاتفاق و لا للحظ و لا للبخت، لا يوجد شيء من هذه المعاني، و إنما هذه من جعولات الناس الذين يجهلون بالأسباب و المسبّبات، كل مافي هذا العالم شبه سلسلة مترابطة من العِلَل و المعلولات، جزئياته و كلياته، أي من الذرّة إلى المجرّة كله أشياء مترابطة متماسكة و يقولون أن حركة المجرات البعيدة التي يكون حركة بعضها ضمن مئات بل آلاف بل ملايين السنوات هذه الحركة ذات انعكاس على واقع الأرض و أهل الأرض وكل جزئيات الأرض، يقولون أن حركة رفرفة الفراشة أو البعوضة هذه الحركة مرتبطة بسلسلة من العلل و المعلولات الخاصة بالحركة الفلكية للكواكب و المجرات الضخمة، قد لا تكون هذه العليَّة و المعلوليَّة واضحة و جليَّة لدينا و لكن هذه القاعدة العقلية التي تقول (الشيء ما لم يجب لم يوجد) هي حاكمة على كل جزئيات هذا الوجود بل أن بين هذه الجزئيات و الأحداث و الوقائع سلسلة من المعلوليّة و العليّة، لا يوجد معلول إلا بتحقق علته التامة فإذا وجدت العلة التامة يوجد المعلول و ما لم توجد العلة التامة يستحيل وجود المعلول، و إذا وُجِدَت العلّة التامّة يجب و لا مفرّ من وجود المعلول، فالمعلول بين حالتين، بين حالة لزوم الوجود أو لزوم العدم، و من هنا لا معنى للحظ و الاتفاق و الصُّدفة، حيث أن هذه المعاني توجد في دائرة الانسان الذي يجهل العِلل و المعلولات. الانسان يخرج من المنزل فيتعرض لحدث معين فيقول بالصدفة لكن الواقع أن هناك علل و معلولات أن هذا الرجل خرج من منزله في ساعة معيّنة في ضمن معادلة معينة

و بطريقة معينة و جاء في الثانية المعينة الى نقطة ساقت المقادير الأحداث لوقوع ذلك الحدث الذي له سلسلة علله أيضاً ، فالوجود و جزئياته من أصغرها إلى أكبرها في كتابٍ لا يضل ربي و لا ينسى.

قاعدة (الشيء ما لم يجب لم يُوجد) و اختيار الانسان

طبعاً أول ما يتبادر في الذهن بعد بناء هذه الصورة و القبول بها أنه أين إرادة الانسان و اختياره و دائرة الحرية.

يقولون أن اختيارك هو في ضمن هذه العلل و المعلولات و طولها و أن الله شاء أن تسير الأمور في ضمن هذه العِلل و المعلولات التي منها إرادتك.

إذا أدرك الانسان طبيعة الوجود و الحركة و هذه المعادلات تنعكس عليه طبعا لا بحيث أن تصير عنده حالة من الاستسلام و الشعور بالجبر و أن الأمور كلها بيد الله و أن لا شأن له و لا خيار!، فإن هذا لا يلزم منه ذاك و إنما المعنى أن كل شيء إنما يوجد إذا وَجَب، بمعنى أنّ هناك سلسلة عِلل و معلولات منها اختيارك و إرادتك، أنت باختيارك تمثل جزءً من هذه العليّة و المعلوليّة.

و يترتب على ذلك أمران خطيران يجب أن نلحظهما الأول هو معنى الزهد أي الاستسلام للمشيئة الإلهية و القبول بإرادة الله يقال أن الإمام الصادق عليه السلام عند وفاة بعض أبنائه و لعله إسماعيل لأن إسماعيل ابنه الأكبر توفي في زمن الإمام الصادق عليه السلام، من كان حاضراً في مجلسه نقل أن الإمام عليه السلام كان يُكثِر من الدخول و الخروج الى المنزل قبل علمه بموت ولده و كان يدعو و متفاعل مع حالة ابنه ثم بعد وقت من الزمان فإذا به جالس مطمئن و مستقر و كأنه لم يكن شيء، قيل له قبل قليل كنت تدعو الله و تلحّ بالدعاء و تقوم و ترجع و تسأل عن ابنك و عن أحواله ثم فجأة وجدانك مستقراً تمام الاستقرار فقال نحن قوم إذا نزل البلاء صبرنا، قبل أن ينزل البلاء هناك

مجال و سعة حركة لك تذهب و تعود و تدعو و تعالج و لكن إذا نزل البلاء فعليك أن تعلم أن هذا هو المكتوب و المسجّل و أنه لا مفر منه، لا يحصل عندك حالة جزع و أسى و فرح، و لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للمتقين: (نزّلت أنفسهم في البلاء كالتي نزّلت في الرخاء)[1]؛ لا يختلف حالهم عن حال! تجد عنده حالة من الاستقرار و الاستواء و الاعتدال في مزاجه و هذا هو حقيقة الزهد وقِمّته، أنك تجِدّ و تجتهد و تعمل و تأخذ بأسباب الكسب و العلاج و المغالبة و الرّبح و لكنك لاتنظر الى هذه الأسباب و إنما تنظر إلى مسبِّب الأسباب و تعلم أن كل ما يصدر منك إنما ساهم في أن يكون جزئية من جزئيات مجموعة عِلل طويلة عريضة أنت لست إلا جزئية من جزئيات تلك العِلل، منها أن كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ أنت لا تستطيع أن تمحو ما في اللوح، نعم! تستطيع أن تساهم في ذاك من خلال الدعاء بل أن العمل هو نوع من المساهمة في التغيير و التبديل.

هنا تأتي النقطة الثانية و هي حقيقة الزهد، فالزهد ليس مجرد عدم الرغبة في الأشياء بل هو حالة من الاعتدال الروحي و التوازن النفسي الذي ينعكس على الانسان بحالة من الاعتدال. الزاهد يصبح انساناً حكيماً مستوياً، انسان سويّ الخلقة في أعماقه لا سويّ الخلقة في شكله و قدمه و يده بل سويّ الخلقة ببناء ذاته، فالزاهد هو ذلك الموجود الذي تجسَّدت فيه موازين الاعتدال في أتمّ صورها.

أبعد من ذلك هي حالة أخرى و هي إدراكك أن هذا الوجود حيث أنه يسير في ضمن منظومة دقيقة من العلل و المعلولات و أنك جزء في هذا

---

[1] نهج البلاغة، خطبة المتقين.

الضمن هنا لا تغلق أمامك أبواب الأمل و الإيمان بل تبقى دائما و أبداً مهما تكالبت عليك أسباب اليأس و الإحباط لاتسد أمامك الطرق.

حالة الزهد حالة اطمئنان و استقرار واستواء و اعتدال، أما حالة الأمل فهي حالة حركية و اندفاع و فاعلية قد يستوحي البعض أن الزاهد هو انسان ساكن غير راغب، لايتحرك و لا يبحث عن أسباب الحياة بعنوان الزهد!، و هذا ليس من الزهد في شيء لأن الآية التي تثبّت الزهد في نفس الوقت هي تزرع الأمل لأنها تقول أن كل ما في هذا الوجود مسجّل في مرتبة سابقة، قد يقول البعض أنه يلزم من ذلك الاستسلام فلماذا أدعو و أتعالج إذا كان مسجل أن عمري خمسين مثلا و ما الغرض من أن أتغذى لينمو بدني؟!، فإذن آكل لأني أشعر بألم الجوع أسدّه و أتلذّذ بالمأكل و المشرب و ليس أكثر من ذلك، أما أن أعمل في سبيل أن يطُول عمري فهذا غير ممكن لأن كل شيء مسجّل و مكتوب ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَاب﴾؛ يجب أن أستسلم لما هو مكتوب في هذا الكتاب، لكن كل هذا غير صحيح، الصحيح أن ما في هذا الكتاب متفاعل تماماً.

دور ليلة القدر في تحديد مصير الانسان

و لعل هذا ما تكلمنا عنه في العام الماضي في مسألة ليلة القدر و أثرها، فمن كان عنده عزم و إرادة و جد و انفعال في سبيل الكسب فليسعى لإدراك ليلة القدر، و المشاعر التي تنتابك خلال عملية الكسب من شدّ و جذب و نحوها لا تؤثر في كسبك و لا في ربحك، الذي يؤثر و بنسبة أكبر في ربحك و كسبك هو انفعالك في ليلة القدر و حركتك الروحية في هذه الساعات، أ ليست في هذه الساعات هي التي تسجّل فيها الأعمال و الأرزاق و ما تؤتونه و ترزقونه؟ في هذه الساعات و من خلال ماتحرقه من مشاعرك و أحاسيسك في عملية انفعالية حركية روحية تُحدث فيها المقادير التي ستُكتَب لك إلى عامك

القابل بدلا من أن تحرق مشاعرك و تسارع في سبيل الكسب و التنافس و المغالبة كل هذه و إن كان لها تأثير لكن تأثيرها مثل الحركة الضيّقة في دائرة ضيّقة، هناك دائرة أوسع و الحركة فيها أوسع و أبعد التي هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. في هذه الليلة و في هذه الساعات و في هذا الوقت عليك أن تعمل لحساب دنياك و أخراك، أنت تستطيع في هذه الساعات أن تسجل في اللوح المحفوظ الذي سوف ينعكس على سلوكك خلال السنة القادمة!، أنت في هذه الآنات ترسم مصيرك و تحدد ما قد يصيبك خلال السنة القادمة و لكن يحتاج منك إلى انفعال وتوجه و إقبال و إدراك أنك في هذه الساعات تُفتح أمامك نافذة استثنائية لتسجّل ما تشاء بنسبة ما تصعّد من مشاعرك و أحاسيسك في الارتباط مع الله جل و علا و هذا الذي تؤكده الروايات من أن هذه الليلة خير من ألف شهر و أن في ليلة القدر تسجّل فيها المقادير و تسجل فيها ما يمضي خلال سنتكم القادمة.

نؤكد أنه ليس معنى هذا أنك خلال السنة تهمل و تجلس في بيتك و لا تتحرك للكسب و إنما تعني أن ماتحدثه من تصرفات إنما هو استفعال و تفعيل لما سجلته في ليلة القدر و بتوضيح مختصر و ننهي بذلك الكلام، في ليلة القدر بمقدار ما تتقرب إلى الله عز و جل يسجّل لك أن فيك قابلية أن تربح مبلغاً معيّناً، بعد ليلة القدر لا مجال أن تربح أكثر من ذلك المبلغ لكن ليس بالضرورة أن يكون معناه أنك ستربحه و أنت جالس في بيتك! لا، ليس هذا هو معناه بل معناه إذا اشتغلت و بالطريقة الصحيحة و المنطقية الطبيعية للكسب، تذهب إلى السوق تفرش المادة المباعة و تبيع وفق ما يقتضيه السوق، هناك الله يرزقك ذلك المبلغ لأنه سُجّل لك في ليلة القدر، و من هنا لا يفيد الحريص حرصه في الكسب إذا كان قد سجّل في ليلة القدر.

المراد من أنّ كل شيء مسجّل في كتاب

هذا معنى أن كل ما يجري في هذا الوجود في كتاب، هذا الكتاب ليس أمراً مغلقاً و إنما فيه قابلية المحو و الإثبات، هو هذا الكتاب أيضا في حالة حركية وفي حالة التبدل و التغير، نعم هو مرتبة من مراتب الوجود، بمعنى أن فوقه كتاب لا محو فيه و لا إثبات كما هو الحال بالنسبة لأعمار الناس هناك عمر محتوم و هناك عمر مخروم، كذلك الكسب هناك كسبٌ مكتوب لك و آخر ليس مكتوب لك، و هناك تبدل في التدبير الإلهي في هذه المراتب الوجودية.

أثر الزهد على إيمان الانسان

خلاصة الكلام أن هذه الآية في نفس الوقت التي تزرع فيه حالة الزهد في الحياة الدنيا و عدم التقلب المزاجي بين الربح و الخسارة لأن من لم يؤمن بهذه الآية تجده يأسى على ما فاته في حين أنه يتصور أن ما فاته كان لابد أن يكسبه و الحال أنه ما كان يفترض أن يكسبه، و كما يقول أمير المؤمنين إن أسيت على ما فاتك فأُسَى على كل ما تفلّت من يديك؛ يعني إذا يوم من الأيام ذهبت لصيد السمك و اصطدت سمكة ثم فجأة قفزت من بين يديك للماء! أ لا تشعر بحالة من الخسارة! أنت خسرت كل السمك الموجود في الماء لأن كله كان في الماء، فما معنى هذه السمكة الواحدة التي أمسكت بها فظننت أنك ملكتها و الحال أنك لم تملكها، ما لم تأكلها لم تملكها، و لا يزال حالها كحال بقية السمك الذي في الماء، لماذا تأسى على السمكة؟ لأنك تصورت أنك ملكتها فإذا تفلتت من يدك شعرت بأسى و حزن عليها! و الحال أنك لا ينبغي أن تأسى لأنها ليست مكتوبة لك من الأصل، كذلك الحال في ما إذا ربحت شيئاً تطير به فرحاً و تشعر بحالة من الزهو و لذلك الآية القرآنية تربط بين حالة الزهو و التكبر بعدم الإيمان بهذا المعنى. القرآن يقول: (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ)؛ حالة الشعور بالاختيال و

الفخر هو الشعور بأن ما يقع في يدك هو ملكك و أنت مسيطر عليه في حال أنه إنما ملكته لأن الله كتبه لك و لو لم يكتبه لك فإنه ليس في مُلكك. خلاصة الكلام أن الانسان يجب أن يعيش حالة من الاعتدال و الإدراك بأن طبائع الأمور هي هكذا أن ما أصابك لم يكن ليخطأك و أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، و أن كل ما في هذا الوجود مسجل في اللوح المحفوظ و أنك بجهدك في دوائر العبادة و الطاعة بالدعاء و الارتباط بالله عز و جل تساهم في تغيير هذا اللوح المحفوظ أكثر مما تغيره بالجهد و الجهاد و العمل في مخارج الحياة نرجو من الله سبحانه و تعالى أن يوفقنا و إياكم إلى إدراك هذه الحقائق القرآنية التي تنعكس على الانسان بالاستواء و الاعتدال و حقيقة الإيمان و نرجو من الله سبحانه و تعالى أن يوفقنا و إياكم في هذه الليالي المقبلة –ليالي القدر- الى فهم هذه الليالي و حقيقتها و الحمدلله رب العالمين و صلى الله على محمد و آله الطيبين الطاهرين.

المحتويات

حركة الانسان: روحيّة و ماديّة ٥

١/ احتياجات البدن و تطلُّعات الرّوح ٥

٢/ شهر رمضان: موسم خاص للسلوك الروحي ٦

لكلّ ما في الوجود حركة ترقّي..... ٧

لكلّ ما في الوجود مرتبة من الإدراك و الخضوع..... ٧

مميّزات الانسان عن سائر الوجودات في الحركة التكامليّة ٩

٣/ التفاوت بين الحركة الروحيّة و الماديّة ١٠

أ-اختلاف درجات المؤمنين..... ١٠

ب-طبيعة الجزاء الأخروي ١١

ج- تكامل الروح في عالم المطلَق على خلاف الحركة المادية المحدودة ١٤

حقيقة القرآن..... ١٦

إنارة ١٦

القرآن الكريم هو "الكتاب" ١٧

آفاق احتياجات الانسان و القرآن الكريم ١٨

العلاقة بين مراتب الحقيقة القرآنية و الانسان ١٩

دراسة تأثر الحركة التاريخية للانسان بالقرآن ٢٠

القرآن: منطق، لغة، و فنّ..... ٢٣

القرآن: روح الانسان ٢٣

١/ منطق القرآن ٢٤

أ-تطابق المنطق القرآني مع الواقع التكويني..... ٢٤

ب-دقّة القرآن في التعبير عن الواقع التكويني..... ٢٥

ج-ضرورة الإلمام بنتاج الفِكر البشري في فهم التكوين ٢٧

٢/ لغة القرآن ٢٨

قدرة الانسان على فهم القرآن ٢٨

٣/ الفنّ القرآني ٣٢

منطق القرآن و تدرُّج الفكرالانساني فيه..... ٣٤

محوريّة التوحيد في القرآن الكريم..... ٣٤

تدرّج الانسان في فهم التوحيد..... ٣٥

التوحيد عند المشّاء ٣٥

التوحيد عند الصوفيّة ٣٦

التوحيد عند ملاّ صدرا ٣٧

أثر التوحيد الخالِص على الانسان ٤٠

١/ الإحساس بالفقر لله عزوجلّ..... ٤٠

٢/ورضوانٌ من الله أكبر..... ٤١

٣/ إدراك الانسان لأتمّ أشكال القُرب الإلهي..... ٤٣

٤/ قيّوميّة الله في الإدراك الانساني..... ٤٤

لغة القرآن (١): أسلوب القرآن في التعبير عن الواقع.....٤٦

احتواء القرآن على خصوصيات الواقع ٤٦

القرآن يحكي خصوصيات الواقع بدقّة و وضوح ٤٦

كيف طوّع القرآن اللغة العربية لإيصال المعاني بدقة؟ ٤٨

أسلوب القرآن التعبيري..... ٥٠

١/ الظهور و البطون..... ٥١

٢/ التحاكم و النسخ..... ٥٤

٣/ الأمثال..... ٥٥

لغة القرآن (٢): ظاهرة المُحكم و المتشابه في القرآن.....٥٨

تتبُّع استعمال القرآن للفظيّ المحكَم و المتشابه..... ٥٩

تطوّر معاني التأويل في الثقافة الدينية وأثره على فهم المحكم و المتشابِه. ٦٠

التأويل في الاستعمال القرآني ٦٢

١/ التأويل هو انكشاف الو اقع الذي تكلم عنه القرآن..... ٦٢

٢/ التأويل هو التحقُّق الخارجي في هذا العالم..... ٦٣

٣/ التأويل هو الآثار الخارجية للعمل و السلوك..... ٦٤

العلاقة بين التأويل و التفسير ٦٤
تعدُّد اصطلاح المُحكم و المتشابه في الاستعمال القرآني ٦٥
لغة القرآن (٣): الغرض من وجود المتشابهات في القرآن..... ٦٧
إنارة ٦٧
أ/ تاريخ التأويل في الثقافة الإسلامية ٦٧
ب/ مقاصد استعمال القرآن للتأويل..... ٦٨
ج/ الراسخون في العلم و العلم بالتأويل..... ٦٩
دور التأويل في تبرير استعمال المتشابهات في القرآن ٧١
١/ القرآن: فيض النور..... ٧١
٢/ أثر العطاء الإلهي على نفس الانسان ٧٢
محدودية الانسان في استقبال العطاء هو سبب التشابه ٧٤
لغة القرآن (٤): علاقة الإحكام و التشابه بزَيْغ القلوب ٧٦
معنى آخر للمحكم و المتشابه في القرآن الكريم ٧٦
١/ الإحكام و التشابه يشيران إلى علاقة اللفظ بالمصداق الخارجي... ٧٦
٢/ النسبيّة في الأمور الخارجية..... ٧٩
٣/ الفرق بين عمل المفسّر و الزائغة قلوبهم تجاه المتشابهات ٨٠
معالجة المتشابهات بالمُحكمات ٨١

تفسير النسخ و البداء على ضوء علاقة الواقع الخارجي بالمحكم و المتشابه ٨٢

النسخ ٨٢

أقوال العلماء في أصل وقوع النسخ في القرآن ٨٣

١/ نسخ التلاوة ٨٣

٢/ نسخ التلاوة و الحكم ٨٤

٣/ نسخ الأحكام ٨٤

البداء و النسخ ٨٤

حقيقة النسخ و البداء ٨٥

١/ النسبيّة و التداخل في القِيَم على مستوى الو اقع الخارجي ٨٥

٢/ طبيعة تدبير الله للوجود يستلزم القول بالنسخ و البداء ٨٦

تقرير شُبهة إنكار البداء و جوابها ٨٦

البداء نافذة أمل ٨٧

هل البداء ينشأ من الجهل؟ ٨٩

الفنّ القرآني (١): حقيقة القرآن و غاياته ٩٠

إنارة ٩٠

ما المراد بالقرآن؟ ٩١

السر في الأُنس بالقرآن الكريم ٩١

غاية القرآن: خلْق مجتمع حيوي فعَّال ٩٣

مدى تفعيل القرآن في مجتمعنا المعاصر..... ٩٤

تأكيد الروايات على ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم..... ٩٧

المراد بتلاوة القرآن وكيفيتها..... ٩٩

فن القرآن و طبيعة معالجة الأئمة عليهم السلام للخطابات القرآنيّة العامّة..١٠٠

الأئمة عليهم السلام يخبروننا أنَّ للقرآن بُطون ١٠١

إنارة: لكلّ سورة روح عامّة تربط بين مقاطعها ١٠٢

الروح العامّة لسورة النبأ..... ١٠٢

قاعدتان متقابلتان في بيان المقصود بباطن القرآن ١٠٤

١/ الاعتباريّة في حياة الانسان الدنيويّة..... ١٠٤

٢/ تجسُّد الأعمال..... ١٠٥

الإمام علي عليه السلام: النبأ العظيم ١٠٧

التأويل و بطون القرآن ١٠٨

فنّ القرآن في صياغة النّفس..... ١١٠

كلّ ما في هذا الوجود مسجّل في كتاب ١١٠

ماهو هذا الكتاب؟ ١١١

دقة تعبير القرآن عن مضمون الكتاب ١١١

الزهد هو ثمرة الإيمان بمضمون ذلك الكتاب ١١٢

قاعدة مهمّة في بيان المسألة ١١٣

قاعدة (الشيء ما لم يجب لم يُوجد) واختيار الانسان ١١٤

دور ليلة القدر في تحديد مصير الانسان ١١٦

المراد من أنّ كل شيء مسجّل في كتاب ١١٨

أثر الزهد على إيمان الانسان ١١٨